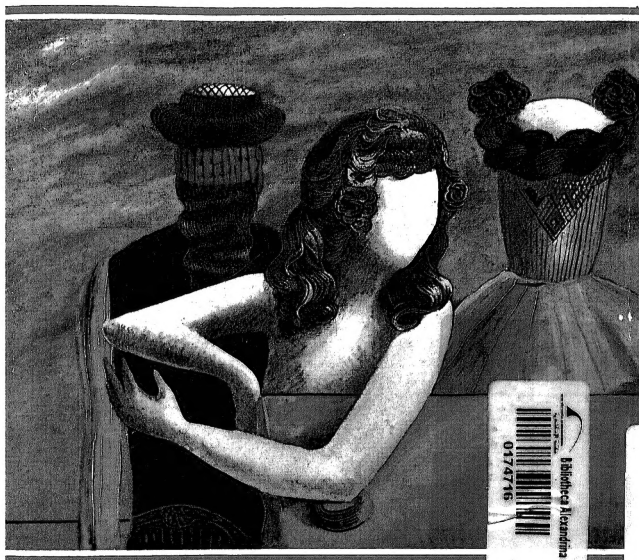


غداة السَّـمَّان ختم الذاكرة بالشمع الأحمر



منشورات غداة السَّـمَّان

الاعمال غير الكاملة ٤

الأعمال غير الكاملة

٤

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر

لوحة الغلاف الأول للفنان ماكس أرنتس رسمها عام ١٩٢٤ واسمها « ضيوف الأحد » .

لوحة الغلاف الأخير : المصور ساياك

المشرف الفني : نبيل البقيلي

الخطوط : حسين ماجد

طبع الكتاب : دار الكتب - بيروت

غَادَةُ السَّمَانِ

الأَعْمَالُ غَيْرُ الْكَاطِلَةِ

٤

خُتْمُ الذَّاكِرَةِ بِالشَّمْعِ الْأَحْمَرِ



جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
منشورات غادة السمان

بيروت - ص . ب . ١١٨٣٣١
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى : تموز (يوليو) ١٩٧٩
الطبعة الثانية : كانون الثاني (يناير) ١٩٨١
الطبعة الثالثة : كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥
الطبعة الرابعة : كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٨

مصارحة

١ - هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهتم بذلك .

كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ - ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرها .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها (حرب ما) ثانية أشعر أن من حقّي الحيلولة دون احتراق أوراقتي مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها - وهي قد تكون أو لا تكون كذلك - ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما أنه لا يمكن تبيته كلية .. وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارئ عربي من قرأني ملجأ يحمي حروفي من الإبادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ - ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة - إلا فيما ندر - ولست من هذه الندره . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ - أعتقد أن العمل الفني كالحظيئة ، لا يمكن عموماً إتقانها بعد ارتكابها ، والحرصاة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبذل شيئاً يذكر . فالكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين وإلى الأبد . هذا بالإضافة إلى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا معناه - لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه - أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (١)

وهو أمر مستحيل وخارج عن طاقة البشر .

٤ - اللمسات القليلة التي أدخلتها في بعض السطور لم تكن تحويراً في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ - « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري - مهما كان مبدعاً - هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص - أي مختارات من أعمالي - (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن - كما أتصور - في كتابة القصة) .

ثم أن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً إلى كتابة الأفضل ، وبخيل إليّ أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموث ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! ...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ - ٩ - ٧٨

الدماء

إلى الذئاب المتوحدة مثلي . .
التي جاعت يوماً إلى الحنان ،
فالتهمت ذاكرتها .

عادة

عن مدينتي الام ..

أعتقد أن القضية في النهاية هي قضية حب ؛
كلما ازدادت حباً للذكرى ما ، ازدادت سطوة
تلك الذكرى ... وغرايتها ...

— فلاديمير نابوكوف —

لقد لقتها الحياة درساً لا ينسى ، وهكذا
حينما يُغلق باب ما في قلبها ، فإنها تسارع إلى
فتح باب آخر ! ..

— ميرتل ويد —

١٩٧٣ / ١١ / ٧

هوامش على فاتورة دمشقية

هذا الصباح وجدت رسالة في المجلة البيروتية التي أعمل فيها بانتظاري . «ظرفها» مصفر كأنما أحرقها الشمس وهي تركض سنوات بحثاً عني من قارة إلى أخرى ، وقد طمس المطر ختمها العتيق فلم أتبين للوهلة الأولى كلماته .. اسم المرسل غير موجود ، وثمة طابعان دمشقيان يعلنان فقط عن هويتها .

رسالة من دمشق !

عشرة أعوام وأنا أنتظر أن تكتب لي أُمي العظيمة دمشق ... عشرة أعوام من الصمت حتى ظننتها نسيته !

تري من وقعها لي ؟ قاسيون ؟ الغوطة ؟ « ساحة النجمة » حيث ترويت وكبرت وحزمت حقائبي ورحلت ؟ .. وإن كتبت لي دمشق ، فماذا تقول لي ؟ بحرقه تذكرت ليالي وليالي وأنا أنتظر رسالة دمشق إليّ ... في كل مدينة تشردت فيها ، انتظرت أن يأتي هذا الظرف المحروق بالشمس والريح ، المغسول بالمطر والثلج ، اللاهت خطفي ... أذكر جيداً أنني سقطت في فخ الغربة في لندن عام ١٩٦٧ بعد وفاة أبي بأشهر . يومها كتبت إلى دمشق ، وبالضبط كتبت إلى صديق لوالدي بالجامعة . قلت له إن أحد السفراء العرب هناك توسط لي لدى إحدى الصحف اللندنية للعمل فيها بالإضافة إلى دراستي وعلمي مع « البي . بي سي » ، واثني بدلاً من أن أفرح أصبت بهلع مروع .. أحسست أنني لو قبلت فسيتطبق فخ الغربة عليّ نهائياً ، وأسقط فيه بعجز أية فارة صغيرة تطيق أسنان الفخ على عنقها . كان المخرج الوحيد في العودة إلى دمشق ، ولكن « عرابي » لم يجب ، لم يكتب لي حرفاً واحداً ..

ودمشق لي لم تكتب لي مباشرة لتقول لي تعالي .

وكننت أنهض مع كل فجر على صوت الحمام اللندني الحزين ، الذي يبدأ أول ضربة

في سيمفونية الفجر هناك ، وكان ينوح مثل فريق من الندابين استأجرته روح شريرة ليرثي موتي اليومي مع كل يوم جديد أحياء . وكنت أقيع تحت الفجر الرمادي مثل سجين يجلده البرد والانتظار... وأنتظر... وأنتظر حتى يأتي ساعي البريد، وأسمع الصوت الأليف لسقوط الرسائل على الأرض .. وأركض إلى الرسائل بحثاً عن رسالة « عربي » .. ولا أجدها .. وأحمل زجاجة الحليب التي يتركها البائع كل صباح قرب الرسائل ويصير للحليب طعم السم . (ربما لم أكن يومئذ أرغب حقاً في العودة ، لكنني كنت دوغماً شك أرغب في أن تظل إمكانية العودة قائمة !! ..) ..

يوم ويوم ويوم .. ولم تأت رسالة صديق الوالد الذي رباني طفلة ... ولم يقل لي حتى لماذا حكمتني دمشق بالسجن ثلاثة أشهر . لقد تبليت الحكم الغيابي حتى دون أن أعرف السبب ! كنت تماماً مثل سجين كافكا ، محكوم بلا جرم يعرفه . (وحتى حين علمت بأن السبب في الحكم هو قانون رجعي المفعول ، يدينني لأنني من حملة الشهادات العالية ، وقد تركت عملي في دمشق دون إذن مسبق ورحلت ، لم أشعر بأنني مذنب ... فقد كنت أجهل تماماً وجود قانون كهذا ، ولم أدر به إلا بعد أن حكمت بالسجن ... ولو أحسست بالذنب لرحلت إلى السجن الدمشقي على أول طائرة ولأصررت على الدخول إليه حتى خارج أوقات الدوام الرسمية للسجناء .. وحتى بعد أعوام طويلة حينما أصدر رئيس البلاد في أوائل السبعينات عفواً عاماً عن هذا « الجرم » شملني ، لم أشعر بأنه غفر لي بقدر ما شعرت بأنه قام بفعل محبة ، إذ مسح خطأ قام به آخرون تحوي .. لم أشعر بأنني مذنب سابقة ، وإنما شعرت بأن دمشق عادت لتدفني بجها .)

ولكن رسالة صديق الوالد لم تصل . وقررت : لا ريب في أن دمشق تحب أن تكتب مباشرة لأطفالها المشردين في غابة الحياة ... وأن رسالة منها لا بد وأن تصلني ذات يوم ... ورغم الصمت المطبق ، لم أسقط نهائياً في فخ الغربة .. كان جسدي يركض في أوروبا ينجون الشهية إلى الحياة والرغبة في اكتشاف الأشياء ، وكانت جنزوري تمنع تشبهاً بترية آسيا ، وتتغلغل في حنايا ترابها مثل طفل يدفن وجهه في جسد أمه العظيمة .. وكنت كل ليلة أحلم بأنني أسير في دمشق .. في شوارعها . كانت قبيلة معارفي تهاجمني بوجوها ثم تنوب بلا رحمة في الفطرات الأولى لليقظة .

وكانت الرسائل تصلني من الجميع ، إلا من دمشق ... وكنت أمزق رسائل الأحباء بحثي ، فقد كان لها في غربتي طعم حزمة من الغاردينيا تُقدّمُ لامرأة جائعة

تفضل رغيف خبز .. ولم يكن من الممكن أن يداوي جوعي المسعور للحنان غير رغيف حب دمشق. مرت أعوام فقدت خلالها أعضائي النفسية عضواً بعد آخر على شوارع المدن التي تشردت فيها ... كنت أخلف في كل مدينة جزءاً من طاقتي على الفرح . والتوق ، والانتظار . وأينما كنت ، في جنيف ، كوينهاغن ، زوريخ ، باريس . روما ، كنت أنهض مع الفجر لأسأل موظف الفندق أو صاحبة الدار عن رسائل لي رغم أن أحداً لم يكن يعرف عنواني ! .. كنت واثقة من أن دمشق ستكتب لي وأنها تعرف عنواني أينما كنت لو شاءت ! . وصحيح أن الطفل يقطع جبل سرتة حين يغادر رحم أمه ، لكنه يوم يغادر رحم وطنه يزداد الحبل الذي يربطه به سماكة ونخاً حتى يتحول إلى جسر لا تهدمه الزلازل العاطفية كلها . وكان ذلك الجسر الذي يشدني إلى دمشق يكبر كل يوم كالجسد الحي . ويتنض وتنفخ مع نبض الانتظار في قلبي ...

وكننت أشيخ بسرعة ، لقد كبرت في أعوام ألف عام وأحرقني صقيع أوروبا ، وجرفني نهر الحزن الذي لا عودة منه ، ولكنني ظلت أنتظر رسالة أمي دمشق كي تعيد إلي الطفولة والفرح العتيق .. وانكسر في داخلي شيء إلى الأبد فاكشفت الرابطة التي تشدني إلى المكسورين أمثالي نساء ورجالا ، الجائعين إلى رغيف ما : رغيف قمح ورغيف حنان ..

وأخيراً جاءت الرسالة !

هل يمكن أن تكون هذه الرسالة أمامي ، المصفرة كوجه لوحته الشمس وغبار السفر ، إلا الرسالة المنتظرة من أمي دمشق ؟ .

ترى بأية لغة تخاطبني ؟ وهل ستفوح من الرسالة حين أفنتحها رائحة البارود والياسمين ؟ وبأي حبر تختار أن تكتب ؟ بالأخضر من نسغ الغوطة أم بالأحمر من بردى مزوجة بتراب جبل الشيخ ؟ . وخطها ، هل يمكن أن يكون إلا قريباً من خط الأطفال والأنبياء ، لا من خطاطي الرقي والثلاث في التكايا ؟ .

وكيف تبدأ رسالتها إلي ؟ هل تقول لي : « ابنتي الضالة ، عودي إلى رحم حناني . فقد طال عذابك ! عودي يا نرف قلبي فقد اشتقت لنوارسي المشردة ؟ » .

أم تراها تبدأني بالعتب : « لماذا يا ليلي الضائعة في الغابة تركت بيتك الآمن وتبعت الذئب ؟ » أم تراها تعرف أن الحماص والشهية إلى المعرفة ، اللذين رضعتهما فيها . حرصاني على أن أقذف ببوليصات التأمين من النوافذ ، وأحرق كل الوصايا الاجتماعية

المتوارثة التي تقدم مواصفات جاهزة محددة لطبخ وجبة الاستقرار ، راکضة في العالم
الواسع باحثه عن حقيقته وحقيقي بلا خوف ولا ندم ؟

تراها تكتب لي عبارة واحدة فقط : « بوركت يا ابني الشجاعة » ، أم تراها
ترسل على رأسي غضبها كصاعقة محرقة : « فلتحرق اللعنة حنجرتك كلما ضحكت ! » ؟
ومزقت غلاف دمشق لأقرأ الرسالة ... لم تكن مكتوبة بحبر بردى وتراب قاسيون ،
ولا بخط الأطفال والأولياء . وانما كانت رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة ! ولم تكن
رسالة حب أو عتب أو شوق أو غفران أو لعنة ... كانت فاتورة !

أجل ، فاتورة من احدى المؤسسات التي عملت فيها منذ عشرة أعوام، قبل رحيلي
من دمشق ، تطالبني بمبلغ ١١٥ ليرة سورية وفرنك واحد فقط لا غير ، فروق رواتب
مقبوضة من قبلي ، إلى آخره إلى آخره إلى آخره .. (إذن وحده كومبيوتر الفواتير لم
ينسي !) ...

فاتورة ؟

ولو جلست وإياك يا دمشق حول مائدة مستديرة وأبرزت لي فواتيرك كلها ، لما قلت
لك غير عبارة واحدة : « لك عمري ! .. لفواتيرك عمري الضئيل الذي لا يكفي ، ولا
يعني أكثر من عمر بعوضة صغيرة تقف لبرهة فوق نافذة دهرك المشرعة على أفق التاريخ » ..

دمشق . لك عمري ،

لا ١١٥ ليرة وفرنك واحد فقط لا غير !

وهذه السطور أكتبها لك على الموامش البيض للفاتورة ... (وأعيدها إليك مرفقة
بالبالغ المذكور أعلاه) .

آه كم كتبت لك ! على البخار المتكاثف فوق زجاج مدن نائية باردة ... على
حقول الثلج كتبت لك . على الطاولات في حانات حزينة ، على جدران الطائرات
الملاصقة لمقعدي كتبت لك . فوق خشب صالات الترانزيت في المطارات ، على بطاقات
التطعيم ، فوق غيتاري كتبت لك . على أرضفة لندن بالطبشور الملون رسمتك وحرست
اسمك من المطر . على إطارات دراجتي النارية . على أربطة الشاش الأبيض التي تلف
جرحاً ما . على قبعة الأستاذ . بالحبر الأحمر طالما كتبت اسمك فوق جلدي باصبعي ...

آه كم كتبت لك ! وهذي السطور أكتبها لك اليوم على الهوامش البيض للفانورة ..
وكم انتظرت وسأظل أنتظر رسالتك ! ..
وسأسأل عنها وأنا أحتضر .
(من « ابنة ما » لك ببيروت - تشرين الثاني ١٩٧٣ - بواسطة المعرفة ») .

• نشرت يومئذ في مجلة « المعرفة » السورية .

١٩٧٣/١٠/٢٢

الرصاصة لك ، والجرح لي ! ...

حينما أغمض عيني ، تندلع الحرائق فيهما . ففي عيني اختبرتك يا دمشق ، حملتك عاماً بعد عام ودرت بك الدنيا ، ودارت بي الدنيا وكنت أبدأ ملجأً وبكائي ومبخرتي وبوصلتي ، وتعميلتي التي بها أطرد شرور العالم ... وكنت الجزيرة الوحيدة المخضرة في بحار الذاكرة الدائمة .

مثل زهرة دوار الشمس كنت أدير وجهي ملاحة رقصة العصر المسعورة ، ولكن جذوري كانت أبدأ مغروسة في « قاسيونك » ونسغك يصب في شرايبي ، وكانت الغربة عنك مزيداً من الالتصاق برحم تاريخك ...

دمشق ، يا أيها العريقة كسنديانة الأساطير ! طيورك المهاجرة تقطنك أينما كانت ، تحترق أجنحتها إذا مرت بصمودك صاعقة ... دمشق ، يا لؤلؤة الزمن ! ليست صدفة أن تضربك إسرائيل ، فأنت أقدم مدينة في التاريخ ، وفي مجرد (وجودك) تحد لكل ما يفترق إلى العراقة والأصالة والعظمة الانسانية . لقد كنت دوماً مقبرة الغزاة ، وكل هجمة بربرية « تيمورلنكية » كانت تنكسر عند أقدامك ... وهذه ليست أول مرة تحاول فيها فئات مقاتلة هجينة تطويعك ، ففي لوائحك السريانية والآرامية وفي لوائحك المكتوبة بأول أبجدية اخترعها العالم ، حكايات دفاعك عن الإنسانية والأصالة ، وخباية الفرح المعتقة في أرضك ... ولبي إسرائيل مطامح فيك منذ عهد داود الذي هزمك إلى حين ، كما هزمت في ١٩٦٧ إلى حين .

...

هل هي صدفة أن الغارة الاسرائيلية الأخيرة على دمشق أصابت ، في ما أصابت ، ما يلي : مستشفى الشرق الأوسط ، المركز الثقافي السوفياتي ، دار المعلمين والمعلمات ، نقابة الأطباء ، مبنى الاذاعة والتلفزيون ، بيوت المدنيين ؟

أي أنها ضربت ما يلي : مستشفى ، مدرسة ، مركز ثقافي ، مركز اعلامي ، أبرياء عزل ؟!

ألا تختزل اسرائيل بهذه الغارة وحدها كل ما تمثله ، وتكتب صيغتها بكلمة حروفها التقابل ، تقول ببساطة : « أنا ضد الثقافة الممثلة بالمركز الثقافي . ضد الانسانية الممثلة بالأطباء والمستشفيات . ضد الطفولة والبراءة الممثلة بالأهلين العزل . ضد الحضارة واللغة الممثلة بمركز اعلامي ؟ » . وهل كانت صدفة أن تضرب اسرائيل شارع السفارات لتعلن عن عدائها الشامل لشعوب العالم كله ، وهل هي صدفة أن قتل وجرح في الغارات رجال ونساء من الأمم المتحدة يحملون جنسيات الدول الآتية :

هولندا ، بولندا ، فرنسا ، باكستان ، ايرلندا ، الروج ، الهند ، روسيا ؟

هل هي صدفة ، أم هو بيان لخطة عمل اسرائيل ، وبرقية مكتوبة بالصواريخ تحمل اعترافات اسرائيل بنواياها وتهديداتها للعالم المتمدن بأكمله ؟!

وحين فقد العدو أعصابه أمام هزائمه في الجولان ، وانطلق يضرب على غير هدئ ، ألم يكن عقله الباطن هو الذي يحدد أهداف العدوان ، فكان الهدف ممثلي العالم في شارع السفارات في دمشق ؟

عشرات الطائرات حملت الحجيم وركضت به فوق وجه دمشق الناصع ، جرحته ولكن ما ظفرت بدمعة . زرعت فيه الحرائق ، أشعلت مدرستي وبيتي وشارعي وأسرتي وقبر أبي ... ولكن ما هم ! دمشق الحرائق تضيء ... وكالفينيق تولد من الرماد . وككل الأمم المقاتلة من أجل الحق والانسانية ، ينبت ثوارها من حطام البيوت ، ويخرجون من الزجاج المحطم ، كما تشق الكهأة موات الصحراء وتخرج من العدم حين يمر بها طائر الرعد .

...

يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر ، الساعة ١٢ ظهرآ ، بدأ عرس الدم في دمشق . أمطرت السماء نارآ وزجاجآ مسحوقآ وحديدآ وأجسادآ ممزقة . ونبت أنياب دمشق وأظافرها ، وولدت هانوي العربية ، وصارت شوارعها أنهار مقاتلين ، ولم يهرب المواطنون إلى الملاجئ ، بل وقف أكثرهم يتأمل ما يدور كما يخرج الناس من بيوتهم إلى الحقول حين يهطل المطر للمرة الأولى مع الخريف ...

مطر القتال ، مطر الدم ، مطر النار كان برداً وسلاماً على قلوبهم التي قتلتها القهر طيلة أعوام ستة تساقط خلالها ثلج الذل باستمرار ، بصمت ، بهلوه وكاد صقيعه يطمر النفوس ويحجر الآمال يبعث جديد لأمتنا ... حتى وكالة الأنباء الفرنسية لاحظت أن ردة فعل المواطنين في دمشق على الغارة لم تكن عادية ، ففسرت ذلك بقولها « الغارة أثارت الفضول في شوارع دمشق أكثر مما أثارت الفرع » ! إذ لم يعد لدى المواطن العربي فرع يفوق فرعه من الاستسلام لحالة « الاسلام — الاحرب » على الطريقة الاسرائيلية .

... .

دمشق ، هانوي العرب ... فصحيح أن عشرات البيوت تهدمت فوق رؤوس أصحابها ، والسيارات انفجرت بأهلها ، وأغصان الأشجار في الشوارع حملت ثمار الحرب البشرية الممزقة الدامية ، المعمدة بقربان الدم ، إلا أن الشمس عادت تشرق من جديد في عيون أهلها . ففي كل شارع ، وكل زقاق ، وعلى سطوح المنازل ، وفي شقوق الأرض المحفورة بالقتال ، وفي مسام التراب يقور المقاتلون الشبان الذين ترواح أعمارهم بين ١٥ سنة و ٦٠ سنة : الرشاش في كتف ، وسلة الأكل في الكتف الأخرى ، والكمامات على وسطهم . الحياة العادية تتسلل من جديد إلى قلب المدينة ، والطائرات الاسرائيلية تتابع تسليها إلى سماء المدينة ، وفي أية لحظة قد تطلق صفارات الانذار صرخة أذان جديدة في فجر ملحمة الدم . إنها الحرب ، وها هو إنسان عربي مقاتل يعي موقعه الحقيقي ، ولم يحدث أبداً أن أطلق أحد رشاشه حزناً على فقيد تحت الأقفاص أو احتفالاً بنصر (كما يحدث في أقطار عربية أخرى ما زال السلاح لديها من لوازم الأفراح ودفن الموتى فقط لا غير !) فالسلاح لصدر العدو ، والعدو فقط .

دمشق الحرائق تضيء منارة في ليل ذلنا الطويل ...

وعرس الدم في دمشق لا يمكن أن يخلو من نغمة باكية أسياسة ، فالحرب هي الحرب ، والطبيعة البشرية لا تتبدل ، لكن النغمة الغالبة في سيمفونية الحرب السورية هي الوعي الجماعي بأنه لا مفر من دفع ضريبة الدم من أجل الحياة بكرامة ، وذلك يتم بقبول واع رزين أكثر من « يوفوريا » خطابية ...

في دمشق ، حمص ، اللاذقية ، بانياس ، والمدن السورية الصامدة كلها ، يواجه المواطنون الحرب بنضج عربي تتكشف عنه نفوسهم يوماً بعد يوم . إنها الحرب تكشف معدن الشعوب كما النار تكشف الذهب .

المهم أن خرافة الطيران الاسرائيلي الذي لا يقهر ، كما لو كان سرباً من طيور
الأساطير ، هذه الخرافة سقطت في تشرين دمشق مع أوراق الخريف ، وخلفت في
شوارعها حطام الطائرات منحوتات وأنصاب مجد ...

• • •

دمشق الحرائق ، يا مدينتي الملتهبة ، المضيفة ، أينما كنا ، فكل رصاصة تُطلق
عليك ، تستقر في صدورنا ...

• • •

لك جبي ولي ذاكرني

طلالا دفعت بي حاجتي إلى الحنان ، لانتماسه
عند أشخاص كانوا يحاولون تدميرني .

- فلان شوغ -

العقل لا يحكم القلب أبداً ، لكنه يصبر شريكاً له
في جرائمه !

- مينون ماكولوجلين -

دعونا ! لننقل ذاكرتنا بماء مضي .

- شكسبير -

برلين ١٢/٨/١٩٧٣

وكن موتي الأخير* ..!

ولم يتراكم الغبار على وجهك في ذاكرتي ؛
ولم تكسُ الطحالب والأعشاب صورك .
ولم يصدأ بريق عينيك .
ولم تصبح أيامنا راية منكسة منسية ،
نصف محروقة بعد معركة خاسرة .
ولم يصمت صوتك في حلقي .
ولم أضيعك في زحامي المجنون ،
ما زلت أقبض بيدي على يد ذكراك .
أتشبث بها في زلزالي ،
ما زلت تقطن تحت جلدي ...

• • •

أيها الغريب .
الصدق الذي يفجر اللغة
هو نفسه الذي يشلها أحياناً ...
وإلا لكتبت دائماً لك وعنك وحدك .
ومع هذا ، أحدثك باستمرار ؛
أسمع كلماتي متعبة ونائية ،
كسعال طفل يقف في البرد خلف الباب :

* نشرت المقطع الأخير منها على الغلاف الثاني لكتاب «حب» - الطبعة الأولى - ونسيت نشرها بأكلها
يومئذ في الكتاب المذكور !!

والباب ضخم وموصد .
أحياناً أتمنى أن أصب بنزفي في أحد شرايينك ،
فأكتب لك ،
أمد حروفي أصابع إلى عالمك ، (لفها بيدك) .
ولكن عبثاً أكتب !
أقول لك : الصديق المطلق لغم اللغة ...
إنه يطيح بمقالع الكلمات في الجو :
ويهشم رخامها أمام زوابع وجعه ...

• • •

غيابك يغتالي .
وحضورك يغتالي ، لأنه عتبة لغياب جديد .

• • •

حينما نلتقي في الشوارع فجأة .
حينما نلتقي صدفة كما يلتقي الغرباء :
تتعرقني صورتك ،
كرصاصة محكمة التصويب إلى جبهتي .
تماماً في منتصف المسافة بين العينين ... (حيث كان يحلو لك أن تقبلي) ،
وحينما أسمع صوتك من جديد ...
يخفق قلبي .
كجسد عصفور طار تحت الثلج مئة عام .
فوق محيطات العذاب :
ثم لمح جزيرة ...
وأتوق اليك ،
توق الموقد إلى النيران وخبز الفرح ،
وأتوق اليك ، وأنساءل
ترى هل الأخطبوط امرأة أحبت كثيراً حتى اللاارتواء
فمنحتها الآلهة عشرات الأذرع
وقدرة لا متناهية على الاحتضان ؟
يدهشي — حينما أراك

انني لا أملك سوى ذراعين ،
وانه لم يثبت لي المزيد منهما .

• • •

أنت يا أنا .
وحينما أهدق في المرأة ،
أجد وجهك فيها بدلاً من وجهي ! ..

• • •

من الأعماق .
من أعماق بُر الصمت المسكونة بهذين الشوق
من أعماق ذلك الجرح الذي لا قرار له ،
من أعماق بحيرات الذاكرة ،
ومياها المعتمة الغامضة ،
ينبض الشوق إليك ،
ينبض ، ينبض ،
مثل طائر أسطوري يقطن ظلامها بسرية مروعة ...
من أعماق الأعماق ،
من أعماق نهر الجنون ،
وطبول الذكريات تدق في قاعه ،
وورود النار والندم تنفتح على صفته ،
من أعماق جحيم حبي
وحبي جحيم توجك إلهاً للألم ،
أناديك ...

تعال امتلكني كالموت .
فليس لامتلاكه شريك أو وريث ..
تسلل إلى زحامي دون أن يلحظك أحد ، كالموت ...
خفيف الخطى سيد الساحة كالموت ...
خطني إليك فجأة كالموت ...
ضمني إليك كالكنف .
وكن موتي الأخير !

اسطمبول ١٩٧٤/١/٧

وصل الحب . رحل الحب

... كان لك اسم من الأسماء
عادي ككل الأسماء
فأسميتك « الحب » .
... كان لك وجه
عادي التضاريس ككل الوجوه
فزرعت في إسفلته حقلاً من الأقحوان والبنفسج .
وصيرت ابتسامتك قوس قزح
وشعرك زوبعة بحرية
وأنفاسك مبخرة الزمن الجميل ...
... كانت لك عينان
تحملان فواتير الهوموم العادية ...
فأشعلت فيهما نيران العراك
وأضأت مصابيح فتورك
يجنون التحدي ،
وأيقظت ديكة شراستك
فقامت تعلن عن فجر قتالنا .
... وكان دمك الملل والتكرار
فصبرت شرايينك شوارع مهرجان ! ..
وكانت أيامك رتيبة متشابهة :
مثل أسطوانات « جوك بوكس » عتيقة منسية :
فصيرتها سيمفونية مثيرة

مثل أغاني عرائس البحر لـ « يوليس »
ونداء مجننيات الليل والفرح
بشعورهن المبتلة بالمطر
وأظافرهن الطويلة كأعواد ثقاب خرافية
يشعلن بها القمر والنجوم ...

• • •

لقد منحتك الحزن ،
وأطفأت غرور عينيك
إذ مسحتهما بزيء الألم المقدس ،
لقد منحتك وجع الصبح
وكننت ساقطاً في مجد الرثابة ...

• • •

علمتك كيف تستمتع بعراك طواحين الهواء ،
علمتك كيف تبني قصورك في الرمال .
وكيف تسكن معي بيوتاً من أوراق اللعب « الكوتشينة » ،
بعد أن كانت عماراتك الحجرية
هي كل ما تعرف ...

• • •

دمرت حصار أقراصك المنومة والمهدئة ،
وزرعت الأحلام والكوابيس في نومك الميكانيكي ...
انزعك من لحنك اليومي المفضل : ضربات الآلات الكاتبة ، والطابعة ، والحاسبة ،
لسكرتيراتك ...

وعلمتك موسيقى الشاطئ الآخر
في قيثارة الحناجر المذبوحة ..!
وإلى سماء عينيك أعدت السحاب والمطر ...
وهدمت جدران ذاكرتك ، وأعدتك للبكاء ، والدهشة ، والانتظار ... وربما الصلاة !

• • •

لا تتحدث عن الندم
لا تحس خسارتك .
لا تقدم تقريراً بأيامك الضائعة معي ،
يكفيك مني اني منحتك القدرة على الحب ،
أعدتك أيها الضال في مفاوز الثروة والشهرة ،
إلى وطن الحب .
وأوقفتك على بابهِ
كما بقية رعاياه ، من البسطاء والدرائش والفقراء ،
حافي القدمين ، وعلى شفيتك أنشودة شاعر جوال !

• • •

يكفيك مني ،
اني حررتك من مقعدك المزأز اللوآر الفخم .
ولو لعام ،
وأخرجت لك من تحت بزاتك الثمينة
جناحيك المنسيين
لتطير بهما شفافاً كفراشة من نور ،
معلباً وخافقاً كشراع ضال ،
يكفيك مني :
أنني ذكرتك بقارة الألم
الأوسع من قارة الرضى ...
وأن الشوق أهم من أسعار الذهب في البورصة العالمية ،
وأنك كَوْنٌ من الغابات والصواعق
والسماوات المضيئة والليالي الطويلة ،
ولست مجرد اسم في دليل الهاتف
له خمسة أرقام ! ..

• • •

فليته كل شيء كما بدأ
بسعادة وامتنان متبادل ،

وكف عن سؤالى : لماذا ؟ ..
لست أنا التي أمضى ،
إنه الحب مضى :
جاء ، وقضى فصوله الأربعة معنا
وولى
كما يولي عام ليبدأ عام ،
فالحب ليس ضيفاً ثقيلاً .
يقيم إلى الأبد .
انه دورة من دورات الطبيعة ،
كان لنا شتاؤه وربيعه وصيفه وخريفه ،
وجها هو يرحل ! ..
وكما جاء يرحل ، بخطاه الخفيفة كخطى « بابا نويل » .
حتى دون أن يترك آثار أقدامه على ثلوجي وبحاري ! ..

• • •

وصل الحب . رحل الحب .
تلك هي الحكاية ببساطة :
فلنودع حيننا بامتنان ، لمجرد أنه كان ...
ولنودعه بصمت وكبرياء ،
لا كما يودع الناس عاماً رحل .
بالبالونات والورق الملون والزصق
لنودعه بصمت كبير
فقد كان حباً كبيراً ! ..

صوفى ١٩٧٤/٢/٤

ثلج النسيان الأسود

(إلى ابتسام وأمير)

ذات يوم ، في بابل ، أشار « أمير » إلى كومة حجارة وحائط عتيق مهدم وقال :
« هذي بابل ... وهذي بقايا برج بابل الذي كان من عجائب الدنيا السبع . أليست هذه
البقايا القليلة مخيبة للآمال ؟ »

وركض خيالي المجنون في الصحراء يعيد تعمير كل ما كان ... وامتد شارع
« الموكب » .

واصطنعت المدينة بالألوان ...

وضحك الأطفال .

وانتصبت الجنائن المعلقة من جديد ، وسمعت شلالات المياه تنفجر ، والطيور تهب ،
والريح تزف زقزق ...

وخيل إليّ أنني أشاهد المرأة ، التي شيد ذلك كله لأجلها ،
وهي تركض عبر الأشجار .

* * *

ها أنا وحيدة تماماً في حقل من الثلج لا متناهي الأبعاد ..

وحيدة مثل فزاع طيور منسيّ

وقد احترق القمح وماتت العصافير

ورحل الرجل والبيسر ...

وحيدة مع ذلك البياض الزائف ، الشرس ،

المليء بالتحدي والمكر البريء .
المهيمن بتسوة سرية .
شيء ما في ذلك كله يذكرني بك ...
(آه كيف يندف القلب الحزين ثلجه الأسود
ويصير عمرنا حقلا من الثلج الأسود الشاسع ،
قائماً وكثيلاً كالصداً !) ...
وكما أعاد خيالي تعمير بابل
ذات فجر ضبابي في العراق ،
ها أنا في حقول ثلج لبنان أعيد تعمير مدينة حينا ...
وأستحضرك ... أنت يا ضائعاً كشهقة ، وحزيناً كجمرة .

...

أيها الشقي ،
قرصان النسيان قد مر على بواخر حينا سبع مرات
وهولاً كزمن سرق كنوزنا وهداياتنا ،
وتيمورلنك أحرق كرمتنا ورمى إلى النهر بصورنا ورسائلنا
فاحمرت مياهه ..
وقلتُ انتهينا .
وقالوا انتهينا .
وها أنت تمد أصابعك الدقيقة نحوي ،
ثم تغرسها في قلبي مرة واحدة كخمس خناجر ...

...

حين يغنى على الذاكرة ،
ويرحل الصحر عن مفاوز القلب ،
يزهر الفرع العتيق ،
وأعود قادرة على النظر إلى وجهك

دون أن يتزف جرح سري في روحي ...
 وها أنت تزدهر . تزدهر
 تصير حقلا من الأقحوان .
 ها أنت تسري في الأرض أزهاراً بنفسجية اسمها « لا تمنني »
 (Forget me not) من قال لك إنني نسيت !؟) ...
 تعال أيها الشقي ، تعال نظير ، نظير ،
 نصير حفنة واحدة من الثلج الشفاف
 وتحملنا خيوط النور والفرح لنهطل
 من الأرض إلى السماء ..
 آه ! عبثاً نعاود الطيران
 عبثاً نحاول التحليق عن أرض آثامنا ،
 وإساءاتنا المتبادلة حبال ستظل تشدنا أبداً إلى مستنقع التيه ...
 إن ثلجنا الأسود في الداخل يلتهم بياض العالم كله ...
 الثلج الأسود يفور من عينيك ، من فمك ، من أذنيك ، من جسدك كله .
 لا يبقى من لحظة الرؤيا البيضاء
 سوى هيكلك العظمي المزروع أمامي ،
 والثلج الأسود يتفجر منه .

• • •

وحيدة في ثلوج لبنان .
 ها أنت تضرب عصاك في صحراء الثلج ، يصير لونها أسود
 ها أنت تمسني بعصا حزنك السحرية ،
 ويبلل المطر قاع عظامي ...
 فلتكتف مثلي بلحظة رؤيا عابرة ... هذا كل ما تبقى منا ولنا ...
 والخيال قد يعيد بناء بابل لكنه لن يعيد الحياة إليها ...
 لا تعتب !
 على زجاجك الموصد هطلت أكثر من مرة
 وكنت أضمحل كل مرة دون أن تمد يدك لتلمني اليك
 ... وكنت دوماً تبكي رحيلي دون أن تحول دونك !..

لماذا ، بعد أن علمتني أن أعيشك وهماً وتعيشني حُلماً
عدت تبحث عن ماهيتي وحقيقتي.. ؟

من جديد أسقط في الرؤيا البيضاء ،
وأنت الذي صوته صفير البواخر الراحلة المسكون بالحنين
تسألني : « من أنت ؟ »
وتنتشر حولك في المدى الأبيض سبع نساء كلهن أنا ! ..
هل تذكر ؟
مرة في دمشق قتلتي ،
وفي ضوء القمر دفتني وبين ثلوج النسيان طمرني
وظننت أنك استرحت ... لم تكن تدري أنه كان عليك أن تقتلي سبع مرات !
سبع مرات ! ..
أفعى تسعى في لحم ذكرياتك ، لا شفاء مني . ! ..

لن أكون لك ،
وكي أمعن في لإيلاملك
لن أكون لسواك أيضاً ! ..

أيها الشقي ،
كيف كان كل ما كان ؟ ..
كيف أبحرنا في نهر الفراق الذي لا عودة منه ؟ ..
لم أعد أذكر ..
كنا نصف جادين ، نصف هازلين (هكذا التفاجع دائماً)
كنا نلهو فوق ثلج عمرنا قبل أن يتسخ ،
وتسليتنا ببناء سور
ثم اكتشفنا أننا بنينا السور فيما بيننا ...

ومن يومها وأنا أناديك وأنت تناديني من خلف السور ..
آه كيف استحالت النكتة البيضاء إلى ثلج أسود ! ..

• • •

حين جاء دوري :
بهدهوء وإتقان قتلتك سبع مرات .

• • •

لم أعد وحيدة فوق الثلج .
جاء الأطفال : وها هم يلعبون .
يقتربون مني ، يتأملوني ويرقصون حولي منشدين : « المرأة الثلجية ، من صنَّعها ؟ ! »
ثم فجأة يركض أحدهم إلى أمه باكياً : « ان دمية الثلج تبكي ! »
أمه ، لا تصدقه ...
وأنت : حتى أنت لم تصدق ! ..

• • •

حين جاء دوري :
بهدهوء وإتقان قتلتك سبع مرات .
تركت دمك يسيل فوق جبال حقدتي البيض نهرًا مشتعلًا قاني الحمرة .
واستحميت بدمك وشربت واسترحت ...
استرحت ؟
لا .

من يومها وأنا ما أزال أطارذك في دهاليز الكوايس
التي فتحت أبوابها اللامتناهية والثلج الأسود يفور فيها ...
غداً أقبض عليك أيها الراكض داخل كواييسي وأحلامي :
وبهدهوء وإتقان :
أقتلك من جديد سبع مرات ...

دييو بالروشة - ١٩٧٣/٢/٢

سأحبك ... ريثما تطلق الحياة سراحى !

يا غريب ...
في هذا العالم المسكون بالخبية والرعب
ماذا تبقى لنا سوى أن نحب ؟ ...
في هذا العالم الهرم بالحروب وحكايا القتل
في هذه الكرة الأرضية
السابحة في بحر من الدماء والحيات والأطفال محروقي الخلدود
ماذا تبقى لنا غير الحب ؟ ...
في هذه المدينة الصحراوية العطاء
حيث تتساقط كلمات أصدقائنا المرائية
وجسورهم المملودة إلينا في فضاء وحشتنا
مثل ريش طيور ميتة ...
وفي زحام الشكوك والعتب
وأفئدتهم وزيفهم وأمنياتنا المنطفئة
نشعر بعري القلب الذي لا تدفئه قفازات المجاملات ...
وحين نرفضهم جميعاً ونرفض تاريخنا معهم
ماذا يتبقى لنا غير الحب ؟ ...
وفي زحام الأيدي المصفقة لنجاحنا
والأيدي المصفقة لسقوطنا
— ربما بحماس أكثر —
وفي حلبة السكاكين ،
التي يرشقنا بها أولئك الذين ادعوا صداقتنا مرة ،

وتخلوا عنا لأننا لم نفشل ،
ماذا يتبقى لنا سوى الحب ؟ ...

• • •

« ليست هنالك قصة حب يمكن أن تلوم أكثر من أسبوع » ...
ربما ... ولكن ... أسابيع وأسابيع ...
وحبك رمى بمرساته في أعماقي ...
وعمرى أضحى حينما تغيب
غرفة انتظار في مطار مهجور ،
كفت الطائرات منذ زمن طويل عن المرور به ..
يحتجىء الصمت الباكي خلف مقاعدها
وأحجارها ونوافذها وغربانها ...
وجسدي شدّ إلى عقربي ساعة
يزحفان بي ببطء فوق أرض الانتظار
المفروشة بحطام فناجين القهوة وأعقاب سجائر مشتعلة ...
وحين تيجيء
يصير العمر بيدل فرح ليلة الحصاد ...
لماذا أنتظر منذ عرفتلك
بلهفة محكوم بالاعدام عصبت عيناه ...
ولم يبق له ما يحلم به
غير لحظة سقوط المقصلة في ذاكرته ؟
« ليست هنالك قصة حب يمكن أن تلوم أكثر من أسبوع » ...
ماذا نسمي ما يدور ..

وذلك الجرح الذي بدأ ينزف بصمت وسرية .
كما تنرف جدران الأقبية غير المكتشفة ؟ ...
وهمساتنا المسروقة التي نرمي بها لصمت الحانات الجبلية
كما يرمل بأطفال الخطيئة على أبواب الليل ..

بسرية وبحزن كبير ؟

ماذا نسمي هذا كله ؟

• • •

« الحب علاقة تنشأ بين اثنين أثناء مرحلة المراهقة ...

وقد تجاوزناها » ...

أيها الشقي ، لك أقول

الحب علاقة تنشأ بين اثنين أثناء احتضارهما ... ونحن محتضران ...

أيها الشقي ، تهدر الزمن كما لو انك تملكه ...

لحظات لقائنا تركها لمراج الصدفة

كأن الزمن متسول يقبع أمام بابك .

من آن لآخر فلنعد أطفالاً رغم احتضارنا ...

نحب بلا ادعاءات ونحزن بلا كبرياء متعالية .

• • •

يا غريب ، ترى أين أنت الآن ؟

أعني ، كيف يمكن أن تكون في مكان آخر ،

وأنت تقطنني هكذا وتكونني ؟

أفتفقدك ؟ لا .

أكذب إذا قلت لك انني أفتقدك ...

كيف أفتقدك وحضورك ما يزال يفرسني ...

إنني أفتقد غيابك ...

أشتاق إلى رحيلك عن جسدي وأعصابي وكياني

وأذني وذاكرتي وغدي ...

أمنياتي شريط من أصابع الديناميت

قد عَصَبَ بشدة حول جمجمتي ،

وأحس بمديتك الليلة فتيلاً اشتعل فجأة .

وأخذ يفجّرهما إصبعاً بعد الآخر على التوالي ...

إذن تريد أن أكون معك ولك ؟ ...

تريد أن أخلف كل شيء وراني وأرمي بكل شيء
لآتي إليك عارية من الماضي والمستقبل ؟
لا .

فليظل الشريان نابض نصف المقطوع
معلقاً بين الحضور والغياب ،
وليفل الترف العذب
مستمراً كبركان حي

لا ينفجر كي لا ينطفئ بعد انفجاره ،
وانما يظل يخفق هكذا بكل صخوره وأشجاره
مثل قلب حي نابض وسط موات الطبيعة ...
ربما عبثاً أهرب منك

لكنني سأظل أهرب كي تظل تحيي !
أريد أن أشتري حبك ولو بقرأنا
لأن من لا يحب هو ميت مع وقف التنفيذ ...

* * *

لماذا يدهشك انني لم أقل لك قط : أحبك ! ...
ولماذا لا يدهشك انني لم أقل لك ولو مرة : أنا أتففس ؟
ما الفرق ؟ ...

* * *

أذكر اسمك ، والليل يجلد المدينة بالمطر والرياح والوحشة ...
أذكر اسمك ، وأنا أركض في حلبة العمر السوداء
حيث العلاقات مع الآخرين مثل مسيرة في حقل مزروع بالالغام ...
أذكر اسمك ، حينما تصير بشاعة هذا العالم
قميصاً من الشوك
لا ندرى كيف نخلعه ..

أذكر اسمك ... وأنا في معتقل الضجر
أنتظر أن تطلق الحياة سراحي ...
أذكر اسمك ... لأنه تعويني ... وصلاتي الأخيرة ...
وملجأى الوحيد المتبقي في أرض الرماد والثلوج ...
ومهما حدث ... ستظل أقرب إلي من طلقة نارية تحترق جينيبي ...

١٩٧٤/٣/٢٥

كنا اثنين : أنا وحزني !..

هل أملك إلا أن أكتب عنه ؟

كلكم يعرفه ويحبه (ليس بينكم من لم يحبه ذات يوم على الاقل) ، وليس بينكم من لا يحفظ ولو سطرأ من أشعاره . وأنا أعرفه منذ صغري ، منذ شدتني إليه رابطة الدم والقربى ، وأحبه منذ وعيت أجدتيه .

هل أملك إلا أن أكتب عنه ، وأنا التي عدت للتو من لقائه ، وخلفته في المستشفى خرجت إلى الشوارع وقد نسيت عنوان بيتي ..؟

مثل نمر فضي كان ساقطاً في فخ الفراش الأبيض والأغطية البيض والجلدان والبيض والسقف الأبيض ...

وصار الأبيض عندي لون الحزن !

• • •

هل أملك إلا أن أرتمي على أول كرسي في أول مقهى ، وقد نسيت طقوس التماسك التي أتقن ممارستها ؟ ..

كانت هناك منضدة أمامها كرسي واحد . لم أجلس إليها . اخترت منضدة لشخصين ، فقد كنا اثنين : أنا وحزني . منذ شاهدته كالنمر الفضي الجريح صرنا اثنين متلازمين : أنا وحزني .

وجلس حزني تجاهي . تأملني قليلاً .

ثم أجهش الحزن بالبكاء .

وبقيت صامتة .

• • •

هنا أنا أمد أصابعي المتعبة إلى صدري كالمخالب ، أنتزع من جوفه قلبي ، وأضعه أمامي على المنضدة ، وأسلمه القلم واتركه يكتب ...

فالخزن حين يستولي على القلب يقصر العقل عن رسمه ... ان « عقلنة » الخوف الكبير مستحيلة ...

وما أعظم خوفي وقلقي ... وأملّي !

• • •

كانت الانابيب تخرج من ذراعه اليسرى لتضخ إليه القوة ... وكانت يده اليمنى - التي بها كتب كل ما قرأتموه وأحببتموه - سجيئة يحيط بها قيد قياس ضغط الدم بأربطته المطاطية ... وكان له وجه نمر سقط في فخ صياد غامض الزواج ...

حين رأي فتحة عينيه الزرقاوين حتى آخر مدى في أفقهما وقال لي : « هذا ثمن الجهاد يا غادة ... » .

أردت أن أقول له أشياء كثيرة ... أن أمسك بيده لنعود إلى مدينتنا دمشق ، وإلى بيروتا في « ساحة النجمة » ، وإلى ذلك الزمن الأكثر حناناً وهدوءاً ومرحاً .

أردت أن أقول له : « ولكن هل يستحق الأمر كل هذا الثمن ؟ »
لكنني لم أقول شيئاً لأن الشوك نما فجأة في حلقي ، الشوك والملح ... وفي عيني انعقد سائل فارسي لا يهطل كالدمع ...

وكرر مرة ثانية بصوت متعب : « هذا ثمن الجهاد يا غادة ! .. »

• • •

لقد قرع القدر باب صدره ، وريح المرض جولة ، جولة واحدة فقط لا غير ، المهم ألا يريح الحركة ...

ولذا ،

أناديكم أيها الطيبون والبسطاء والعشاق ، أناديكم يا من لا تزالون تعرفون الصلاة والبقاء ، صلوا للأجل أن يريح الحركة ، اغسلوه بالمحبة ، فالمحبة زيت الشفاء المقدس ... ولتدخل صدره صرختكم لمسة حنان وعافية ... ولتملأ الجوف كهارب لهفتكم وحجكم !

على بابه عبارة « ممنوع الدخول » .

ولكن زيت المحبة يضيء عبر الأبواب كلها ، ويخترق اللافئات كلها ...

« ممنوع الدخول » ؟

لا تصدقوا ذلك ! .. فلتعبر صرختنا إليه . ولتغسل وجهه المحموم بدموع المحبة ...

• • •

« هذا ثمن الجهاد يا عادة ! »

ولكن ،

هل يستحق الأمر كل هذا الثمن ؟ !

نعم يستحق .

ليس قليلا أن يقدر شاعر على جعل الشعر كالخبز .. يحبه الجميع ويتداوله الجميع .
ليس قليلا أن تُخرج الشعر من لفائف التحنيط لتطلقه مع الشمس إلى العيون كلها ...
وتجعل لغة الشعر هي لغة القلب لا لغة محذلق المجمع اللغوي والكتب الصفر (التي لا
تتلقأ أكثرها غير الفئران) ! ..

ولكن هل يستحق الأمر هذا الثمن ؟

لا . نعم . لا ونعم .

• • •

إن أحزان الشاعر لا تضع مع الزمن ، بل يختزنها القلب حيث تنمو وتنمو في
الظلام وبسرية مثل أشجار الأساطير ، ويصير القلب غابة للحزن والعين مرآة للذكرى ...
وفي عينيك لمحت تاريخاً من الأحزان ...

آه ! هل كان يمكن لغير قلبك أن يمرض ؟ وأنت الذي كنت دوماً قلباً يرتدي
الثياب ويسافر ويجب ويكتب .

• • •

أليس قلب الشاعر هو قلب العصر وجدان أمته ؟ ..
ألا يختزل قلب الشاعر كل زلازل عصره وكل أوجاع أمته وكل رؤاها ؟ ..
هل يدهشنا أن يهدد قلبك بالإضراب لكثرة ما حملته وحملته ؟ ..
هذا إنذار يوجهه جسدك إليك ، مطالباً بأن ترحمه ! .

لا تصنع لآليه . نعم أصغ .
نعم ولا .

. . .

اليوم . حين شاهدت هكذا أيتها الأخت الكبير ، مقيداً إلى فراش المرض وأنت فرس
غابات الفرح والعافية ، شعرت بقلبي يقرع مثل طبل جن صاحبه ، يضرب في جوفي
بلا رحمة كجناسي طائر يريد أن يهرب عبر قفص ضلوعي وعبر النافذة كي لا يرى ...
لأنه لا يريد أن يصدق ما يرى ...

اليوم ، حينما شاهدتك ، تمنيت لو أمتحك قلبي ! ولكن ما جدوى قلبي المثقوب
بالأحزان مثل قيثارة لم تعرف غير أناشيد الوجع وصفير رياح القسوة والغربة ! ؟ .
قلبي الذي سطا عليه الألم ، وسرق من دهاليزه نجوم الفرح وعصافير البراءة ،
وخلفه مضخة صدئة مسكونة بالضجيج واللامبالاة ، والتزوات ،
ما جدواه لك ولي ؟ ..

. . .

حين تقرأ هذه السطور ، أتمنى أن تكون كما عرفتكم دائماً ، فرس العطاء والعافية ...
وأتمنى أن تسألني باستخفاف : « أنا بخير . لماذا هذا القلق كله ! ؟ » .
وسأقول لك : « كنت أحلم . وانتهى الكابوس ! »

للقلب ، صرخة بالابجدية وللذاكرة ، شمع أحمر

لا شيء يُرَسَّخ الأشياء في الذاكرة ويثبتها ،
كالرغبة في نسيانها .

— ميشيل دي مونتين —

لبعض الذكريات قوة الحقيقة المعاشة ، وهي
أكثر واقعية من كل ما يمكن أن يحدث لنا ثانية .

— ويلا كاتر —

ما كان احتمالاً صعباً ، صارت ذكراه علية ! ...

— مثل شعبي برتغالي —

قد تكون الذاكرة هي الفردوس الذي لا يستطيع
أحد طردنا منه ، لكنها أيضاً قد تكون الجحيم
الذي نعجز عن الهرب منه .

— جون لانكستر سيالدينغ —

١٩٧٣/١٢/٥

كتابات على دمعة

غرقت نظراته الخبيرة في عيني المرهقتين المسكونتين بالإغماء ، وبعد طول تأمل قال لي البروفسور طبيب العيون : « أريد منك إجراء تحليل لدموعك » !

كانت هذه أول مرة أسمع فيها عن « تحليل الدموع » . سمعت عن « تحليل الدم » و«غير الدم ... أما الدمع ، فلا !

في الطريق نحو المختبر كنت خائفة . ماذا سيكشف لهم تحليل دموعي ؟

بل وكيف يحصلون على الدمع مني ، وأنا البخيلة به حتى في جزر وحدتي ؟ !
لقد انهار شيء في أعماقي منذ زمن ما ، وسد درب الدمع وطمس معالنه ، فكيف أبكي في مختبر التحليل إذا طلب إلي ذلك ؟

ولكن ، لم لا ؟

إنها فرصة رائعة للبكاء بعد طول احتباس لمطر القلب ، وسأبكي دون أن أحمل ضميري أو إرادتي أي وزر . تخيلت المشهد على الوجه التالي : سيقول لي المريض « خذي هذا الأنبوب ، ابكي فيه واملثيه دمعاً » . سأنتهز الفرصة ، وسأبكي طويلاً طويلاً ... فهناك لحظات في عمري مررت بها راكضة وقد أشحت بوجهي عنها ، وهي التي كانت تستحق مني أعواماً من البكاء — بكاء فرح أو بكاء حزن — فلا بكت لأجلها دقائق على الأقل ، وأمر من الطبيب ! سأبكي ... وحتى حينما يأتي المريض ويقول لي أن الأنبوب الذي ملأته بالدمع طاف ، فلن أرد عليه وسأملأ له إبريقاً من الدمع (ترى هل سيعطونني أنبوباً ملوناً مزخرفاً كتلك المدامع الأثرية القديمة ، كتلك التي أهداني إياها صديقي الشاعر المرحوم توفيق صايغ ذات مرة ، ولما سألته لماذا ، قال : « كي تبكي من أجلي ... سيأتي يوم تبكين فيه لأجلي » . وضحكت منه طويلاً يومئذ ...

وحتى يوم سرقة الموت ، ظلت « الملمعة » الهدية جافة ، فقد كان الدمع قد غاض في رمال قلبي المقفرة) .

• • •

ولكن الأمر كان أكثر بساطة في المختبر . لم يطلب إليّ أحد البكاء ، جاؤوا فقط بقطعة قطن ، وحكوا بها جفني فأنهمر الدمع . نقطة واحدة كانت تكفيهم ، ولكنها لم تكن تكفيني ! وحين غادرت المختبر ، فرحت لأنها كانت تمطر ولم يكن في وسعي أن أوقف مطر الدمع في حنجرتي المألحة كمغارة محشوة بالشوك ...

• • •

قال لي الرجل : « تعالي بعد أيام من أجل نتيجة التحليل » .

وعشت أياماً شبه قلقة ... ترى هل سيقراًون ، في دموعي ، تاريخي كله ؟ تاريخ أحزاني كلها ؟ .. هل سيقراًون أيضاً أسماء ... وتواريخ ؟ ... وهل سترامى للمحلل ، تحت المجهر ، وجه ووجه ، وجه أمسكت بها ، ووجه راحت مني في زحام ذلك الزمن الحزين الهارب ؟ ..

هل سيقراً في دموعي اسم دمشق ، مدينتي التي منحتني الصبا والحناد يوم ودعتها وقلدت بنفسني في مستنقع الغربة ؟

ذلك الرجل المكب بوجهه الآن فوق عدسة المجهر ، هل سيقراً في دموعي حكايتي ، وهل يرتجف جسده ضحكاً مني ، من غباء أسميته « حباً » ، وانسيارات أسميتها تجارب ؟ ! . ترى هل ينبت الذين نحبهم داخل دموعنا ، وهل يسبحون في بحر المالح كما الأسماك تسبح في أعماق المحيط ؟ .. ترى هل تسجل دموعنا زلازل أعماقنا وفواجعنا ، بحيث تبقى دوائرها مرتسمة ، هادئة حيناً وصاخبة حيناً ، كما يمزق الزلزال وجه مياه البحر ويترك فيها بصماته ... وهل ! . وهل ؟ .

• • •

ولذا زرع المحلل دموعي (كما يزرعون الدم ويحلونه) ، فوجه من سينبت فيه ؟ .. اسم من ؟ .. اسم « أين » ؟ .. اسم أية مدينة غير دمشق ؟ . ما لون الدمع تحت المجهر ؟ .. المحزونون مثلي ، هل يمكن للمعهم أن يكون له غير لون الدم ؟ ..

ترى هل سيكون للمعي صوتٌ تحت المجهر ؟ .. صوت شلال التمرد وصرخة الحرية والشهية إلى الحياة ؟ .. ذلك المحلل المسكين ، أن تخيفه قطرة دمع واحدة من عيني بكل ما تختزنه من أهوال وحيّوات وجنون وأهواء ونزوات ؟ ... بكل ما فيها من لون الترف وصوت الاحتضار والولادة في آن واحد ... ورائحة لحظة التقاء الشروق بالغروب ، ساعة الذئب ؟

وإذا كانت دمة واحدة تختصرني وتكتشفني تحت المجهر ، أن ينطلق المحلل هارباً راکضاً في الشوارع وقد نبشت بجراحي جرحه ؟

• • •

في اليوم الموعد ذهبت لاحضار نتيجة التحليل . تخيلت انه سيدفع إليّ بعدة مجلدات فيها حكايا عمري ، التي لا يعرفها أحد غير دمعي ! .. وفوجئت بصفحة بيضاء ، وعبارة واحدة تنوسطها :

« الدمع خال من كل شيء » !!!

لم تذكر الورقة ، التي تحمل نتيجة تحليل دموعي ، أي شيء غير حساسيتي لاحد المركبات الكيميائية ... أما بقية « حساسيات عمري » فلم تلحظها .

ما أشد قصور العلم والمجهر والتكنولوجيا وأهله أمام قطرة دمع إنساني واحدة هي بحر من الأسرار ! لا ، لم تذكر نتيجة التحليل أية أسماء ...

أية حكايا ... أي توق ... أي هذيان ... أي جنون . أية سكينه . لم تذكر أية تواريخ ،

حتى ولا تواريخ كهذه مثلاً :

٥ حزيران ١٩٦٧ .

وغيرها .

٧٤/١/٢١

الغابات تموت منتحرة

عاما بعد عام ...

وأنا أكتب ، وقلمي يجرح لحم الورق ، لم أستطع قط أن أنسى أن الورق كائن حي ... أن هذه الورقة التي أخط سطورى عليها كانت يوماً شجرة حية جميلة خضراء ، تمد قامتها نحو الشمس وتمنح أغصانها للطيور وظلها للأطفال والمتعبين ... ربما لذلك ، أجد صعوبة خاصة حين أضطر إلى تمزيق ورقة ما ، أو رميها في سلة المهملات ، وأشعر كأنني أسمع صوتها يشكو محتجاً أو مثلاً ... وحينما أكتب (او اقرأ) أشياء مملة ، يخيل لي أن جسد الورق ما يزال حياً وأنه يتململ تحت الكلمات رافضاً محتجاً ... وحين أقرأ كلمات مأجورة أو عميلة ، يخيل لي أن الورق يحاول عبثاً أن يتملص من تحت الكلمات ، مطلقاً ساقيه للريح ، عائداً إلى غاباته الأصلية حيث النقاء والبراءة الأولى ، بل اني أرى للورق تحت مثل هذه المقالات وجهاً حزيناً كوجه غانية أرغم جسدها على عمله ، وظل قلبها يتوق إلى الانعتاق من قدارة واقعه ...

* * *

منذ كنت صغيرة وتعلمت في المدرسة أن أصل الورق شجر ، ومنذ كبرت وشخت وتعلمت أن للكلمة قدسيته ، صرت أحس بنوع من الحجل والاحترام أمام الورق ، وربما بشيء من الاعتدال للشجر كلما تناولت ورقة لأخط عليها ... إذ ليس في التاريخ « مادة » انتهكت كالورق ، ليس في التاريخ جسد حيّ احتمل فظائع الإنسان كالورق ... فعلى مر العصور كان الورق مستودعاً لأكاذيب البشر وحكايا مجازرهم ، وصار يستعمل وسيلة للاحتيال ، وضربت به الأمثال حتى قيل « حبر على ورق » : ولولا بعض العباقرة الإنسانيين أمثال ابن خلدون وشكسبير وبيتهوفن وغيرهم ، الذين كانوا يعيشون بين عصر وآخر ويرطبون وجه الورق المحروق بالإنسانية والابداع ، لأطلق الورق على نفسه النار ولما انتحراً ... (بل انني كلما سمعت بأن النار شبت

في غابة دون أن يعرف أحد لماذا ، يخيل إلي أنني أعرف ، وان الغابة قررت الانتحار ،
وان ورقها قرر الموت كي لا يستغله الإنسان ويسخره .

• • •

ربما لذلك كان يدهشي دوماً ان الورق أرخص من الذهب والمخمل والقراء ،
وأرخص حتى من الجوارب النسائية ومناشف البحر والمظلات !

وربما كنت الوحيدة التي فرحت بارتفاع أسعار الورق (رغم ان زوجي ناشر) ،
فقد شعرت بأن هذه « السلعة » بدأت تأخذ قيمتها المنسية منذ عصر ورق « البردي »
إلى عصرنا ...

وحين قرأت منذ أسابيع في جريدة « الميرالد تريبيون » انهم يفكرون جدياً في
وضع أسعار الورق في بورصة السلع العالمية وفي الصفحات الاقتصادية كل يوم ،
أسوة ببقية حاجات الحياة الضرورية والهامة كالقمح والقطن والمعادن والبترول ، شعرت
بالغبطة ...

فإنساننا المعاصر ، الذي يقيم الأشياء — للأسف — بقدر سعرها المادي ، قد
يكشف فجأة عن طريق فوائده ان الورق حاجة حيوية هامة ... وان الكلمة قد تكون
رخصت في عصرنا لكن الورق قد ارتفع ثمنه ! وان الأكاذيب صارت تكلف نقوداً
أكثر ... ومن يدري ؟! فقد يشعر لمرة أن الورق هو ابن النقاء والغابة — البراءة ، فلا
يسكب على وجهه من سطور إلا ما يتألف مع النقاء والبراءة !

١٩٧٣/١٢/١٠

تأملات أدبية في اختراع علمي !

مثل إصبع ديناميت ، انفجر في رأسي خسر قرأته في إحدى المجلات العلمية المستقبلية التي أهرى مطالعتها . يقول : تم اختراع طريقة لنقل الذاكرة من شخص إلى آخر ... فقد استطاع أحد العلماء إثبات أن الذاكرة سائل دماغي . وأن نقله من شخص وحقق دماغ شخص آخر به ، يؤدي إلى اكتساب الشخص الآخر كل ذاكرة الأول صاحب السائل ...

الفكرة أكثر إثارة من هبوط أول إنسان على سطح القمر ...

فقد كان دماغ الإنسان منطقة محرمة على جميع الناس ، كل إنسان إشارة استفهام متفئلة . دماغه صندوق مقفل لا أحد يستطيع اقتحامه . كل ما نعرفه عن الآخرين هو ما نراه من سلوكهم الخارجي ، وكل ما نفهمه منهم هو ما يطفو على سطح العلاقات العامة والخاصة من كلمات وأفعال ... لقد اقتحم الإنسان القمر والذرة ، ولكنه ظل عاجزاً عن اقتحام ذلك الصندوق المغلق المسمى بالدماغ ... لقد استطاع الافلات من الجاذبية الأرضية والدخول في الفضاء الخارجي . ولكنه ظل عاجزاً عن الدخول إلى الفضاء الداخلي لإنسان آخر ... رواد الفضاء وعلماءه الذين انتهكوا حرمة (المجهول المسحور) الذي كان اسمه قمراً ، ربما كانوا اليوم يعرفون عن أسرار الكواكب ومداراتها ، أكثر مما يعرفون عما يدور في الرؤوس المغلقة السرية لحبيبتهم وزوجاتهم وزملائهم في العمل ...

ذاكرة الإنسان ، تلك المنطقة المحرمة الكبرى ، هل استطاع العلم أيضاً النفاذ إليها بإبرة صغيرة تمتص عوالمها بكل بساطة ؟ ...

• • •

لقد ظلت ذاكرة الإنسان طيلة دهور مثل صندوق « باندورة » ، نفضل إغلاقه

ونسيان ما فيه على المغامرة بفتحه وإطلاق ما يحويه من أسرار ، سرية حتى الشر : منسية حتى الوجع ... إن أحدا في هذا العالم لا يعرف حقاً انساناً آخر ما دام لا يعرف حقاً ما يدور داخل ذلك الصندوق السحري المغلق بإحكام - أكثر من أية معلبات متقنة الصنع - المغلق منذ البداية بنحتم الـ « Privacy » . بل إن الإنسان نفسه يكاد يجهل أحياناً ما يدور داخل رأسه هو ، في ذلك الصندوق الدماغى المحكوم بحمله المسمى بالذاكرة ، والبعض يقضي بقية عمره كي يفك ألغازه ضارباً باب « دلفي » بأصابع دامية مكسورة الأظافر . وفي الأعلى عبارة سقراط « اعرف نفسك » ... ولكن كيف ؟ ... وتلك الذاكرة القاسية ، التي لا تنسى شيئاً ، وتتواصل مع اللاوعي تسكب فيه من وعائها بلا انقطاع ، ونهجر العقل الواعي لأنه سيحلل ويرضى ويرفض ويحكم بالاعدام على بعضها ... آه كم نخشى الذاكرة العقل الواعي ، لأنه حيادي وواع ومتزن ومتفهم لشروط الدنيا الموضوعية ، وكم تلجأ الذاكرة إلى العقل اللاواعي . ذلك « الوسواس الخناس » اللامبالي بكل المواصفات الموضوعية للعالم الخارجي ، ذلك الذي يثبت رسائله عبر الكوابيس والأحلام حتى يُسكت عقلنا الواعي صوته ؟ ...

• • •

الذاكرة ،

تلك التي نتحالف والزمن والآخريين على طمسها ، ماذا يحدث حين يستطيع عالم ما استخلاصها من برائتنا ، وبرائن سرية صندوقها الأزلي المقلد ؟ ...

وإذا امتصت لإبرة العلم ذاكرة طفل ولد للتو ، وزرعت ذاكرته على شاشة دماغ إنسان كبير يستطيع أن يعبر عما يعلمه ، هل سينقل لنا صورة عما عاشه الطفل في الرحم ؟ الدفء والظلمة اللزجة الحنون ، وهل ، وهل يقول لنا شيئاً عما « قبل ذلك » ؟ .. أليس حلم الكتاب والفنانين جميعاً أن يلتقطوا ولو برقية وحيدة عما حدث « قبل ذلك » ؟ ... ألم يقل الشاعر الراحل « ووردثورث » أن الفنان هو طفل لم يفقد ذاكرته نهائياً ... وهو بالتالي ما زال قادراً على التواصل مع قوى ما وراء الطبيعة ، وأسرار الوجود ، وعلى رؤية الأشياء بعين

-
- استعملت العبارة الانكليزية لعدم وجود مرادف عربي لها ، وعبارة (العزلة) أو (السرية) ليست دقيقة ، ولعل السبب في عدم وجود عبارة عربية لها يرجع إلى عدم وجود مفهوم للـ (Privacy) عند العرب ، تماماً كعدم وجود مرادف أجنبي لكلمة « طرب » العربية !

جديدة في آن واحد ؟ ... ماذا يحدث لنا لو تكلم طفل لحظة ولادته ، أي لو نطقت المعرفة المطلقة والعبقرية الكلية ؟

• • •

وإذا امتصت إبرة العلم ذاكرة شهيد مات للتو ولم يزل دماغه حاراً ، شهيد عظيم كغسان كنفاني مثلاً ، ألن يتطوع الملايين ليحققوا بذاكرته . ولتكون حناجرهم صوتاً لتلك الذاكرة الخالدة ، وليعيدوا تاريخ نضاله وحياته الغنية بالحب كما تعيد ابرة الحياكي بكل فخر إحدى مقطوعات بيتهوفن ؟ .. وهل يمكن لمن امتلك ذاكرته إلا أن يتابع دربه وحياته ، وليكون من جديد كل ما كان من قبل فيها ؟ ...

وبدلاً من « نقل الدم » ، سنسمع الكثير عن « نقل الذاكرة » ...

كثيرون سيتطوعون لنقل ذاكرتهم ، مجاناً ! ... ما أكثر الذين يتمنون لو يفقدون ذاكرتهم ليستريحوا ... فداخل ذلك الصندوق المغلق ، تفرقع سياط الوجع . وتفور أسراب نحل الماضي ، وتلسع وتلسع . كثيرون سيتبرعون بذاكرتهم . ولكن من يرضى بأن تنقل له ذاكرة لإنسان آخر ؟ ... من يرضى مثلاً بأن تُنقل له ذاكرتي أنا . وإذا امتصت الإبرة ذاكرتي ، وزرعتها في دماغ إنسان آخر . دفعة واحدة وبلا نقصان ، وبكل ما فيها من وجع وتوق وأحزان وجنون ووجوه ممزقة وأحلام مشردة وشهية للفرح ونزوات مجنونة وأسرار وأسرار ، ألن يحذوه في اليوم التالي منتحراً ؟

• • •

ترى ما لون سائل الذاكرة ؟ وهل لذاكرة الناس جميعاً اللون نفسه ؟ ... هل يمكن أن يكون لون ذاكرة بيتهوفن الإنسان مثل لون ذاكرة هتلر ونبيرون مثلاً ؟ .. الذين يفورون شوقاً للحياة والعتاء أي الثوار والعشاق ، هل يمكن لذاكرتهم إلا أن تكون كسوائل الراكين منصهرة وفارية ؟ ... وحينما نموت ، أتموت ذاكرتنا معنا ، أم تراها تتابع حياة مستقلة بها ؟ تحل في كائن آخر ، أو تنتقل إلى التربة والريح والليل ، وتصب في نسغ الكون لتساهم في ابقاياته الخفية ؟ ترى هل النجوم هي ذاكرة العشاق ، وكلما مات عاشق تحترت ذاكرته في السماء نجمة تضيء ؟ ...

وحينما يموت الشهداء ، ألا تنتشر ذاكرتهم في نسغ الأرض والأطفال كما ينتشر الثلج في القرى ؟ ...

الذين لم يعرفوا الحب أبداً ، الحب للوطن وللمرأة وللحياة ترى أني آدمغتهم
« سائل ذاكرة » على الاطلاق . أم أن ابرة الطبيب ستخرج من آدمغتهم فارغة خاوية
بقدر ما كانت حياتهم خاوية من نبض العطاء والحب والانتظار والألم ؟ ...

النواسيو المزاج ، المتعدو العطاءات ، إذا انكسر أنبوب سائلهم الدماغى وتساقطت
قطراته على الأرض ، ألن يكون له لون قوس قزح وتنبت الأزهار في موضعه بوحشية
كما في الأرض الاستوائية ؟ ...

الرافضون للاقاء القبض على حقيقتهم . الزئبقيو المزاج . ألن يتبخر سائلهم الدماغى
ويختفي لحظة بغادر مغارته السرية في رأس صاحبه ؟ ...

• • •

وهل يتم تكريس هذا الاختراع العلمى العظيم للدمار ، كأن يخطف الثوار والأبطال
مثلاً وتسرق ذاكرتهم ؟ وينتهي عصر الجواسيس وماتاهاري ومؤسسات الـ « C.I.A. »
بأبرة نحيلة دقيقة سريعة كالأنفى ، حيادية كالصمت ، شرهة الامتصاص كالعلق ؟
ويتم فك عقد الألسنة بأسرع مما تستغرقه حالياً عمليات التعذيب ؟ ... وهل نسمع
بجائزة « زرع الدماغ » كما « جائزة نوبل » للتكفير عن هذا الاختراع الجهنمي ؟ ...
وهل نسمع بأن رجلاً تقدم بشكوى لأنه تعرض لسرقة ذاكرته أي لسرقته هو كإنسان ؟ .

والزوج الذي يشك بزوجته (أو العكس) هل يقدر على استصدار حكم يقضي
بنقل ذاكرة زوجته إليه ليعرف كل ما كان وما قد يكون ؟ ...

وهل يفرض البعض في وصاياهم على الورثة نقل دماغهم لإيهم مع المال ، وبهذا
يتنفي حملنا بجيل جديد يستعمل أدوات السابقين وامكاناتهم لخلق عالم جديد ؟ ...

وإذا ، إذا جاء مجنون تاريخي ما مثل هتلر ، احترف مثلاً سرقة أدمغة شعب ما
كشعبنا ، ونقلها إلى تربة كوكب آخر بعيد ليتخلص من تاريخنا الذي يحركننا ،
ألن تنبت أحراننا فوق ذلك الكوكب أشجاراً من الزيتون المضيء ؟ ألن تلف الكوكب
أحقادنا مثل عاصفة من نار ، ويهطل فيه كبت تاريخنا مطراً من دم وصواعق ؟ ...

• • •

والحب ...

أليس الحب محاولة للتواصل بين ذاكرتين ومزج عميرين ؟ أليس محاولة لإيجاد لغة مشتركة بين ماضيين شبه ممزقين ، نصف منسيين ؟ ...

هل تستعيض العصور المقبلة عن الحب بإبرة تمتص ذاكرة كل من (العاشقين) .
تمزجها ثم تعيد نصفاً متمازجاً إلى كلٍ من دماغ (الحبيبين) ، ويتم الأمر في ربع ساعة
على يدي طبيب مدرب يرتدي الروب الأبيض وتفوح منه رائحة المبيدات للجراثيم ...

ولكن ، ماذا يحدث للانتظار ؟ ... والذي يجيء لا يجيء ؟ ماذا يحدث لساعات
الحوار الحميم بين الغرياء . ساعات الحمس واللاهمس وعبارات الشهية إلى مزج الذاكرة ؟
ماذا يحدث للمرأة المرتدية السواد . الحاملة للذاكرتها السوداء مثل المزيج الذي يغلي في قدر
الساحرات . وللرجل الذي نسي وجهه الحقيقي أو تناساه ؟ ... ماذا يتبقى لهما حين ينظنيء
التوق إلى التخابث والعبث ، وتحل إبرة الطبيب محل اللقاءات الخاطفة ، والاعترافات على
ضوء الشموع ، والهمسات المسروقة تحت أول زخة مطر خريفية ؟ ...

وهل ينتهي دور الكاهن . ويتم الزواج على يدي طبيب « مزج الذاكرة » ، ويموت
الغموض المحبب تحت وخزة الابرة الحاذقة في المكان المعين من الدماغ حيث الذاكرة ؟ ..

• • •

يقول الشاعر أراغون لحبيبته إلزا : « عينك عميقتان حتى انني أفقد فيهما
ذاكرتي » ...

يا لرعب العصر القادم ، الذي سيستبدل عيون إلزا بإبرة فولاذية معقمة ! ...
أم ان « تأميم الذاكرة » على هذا الكوكب هو الحل ؟

١٩٦٨/١١/٢٩

عالم بلا قلب

أمام المرأة تخلع ثيابها . عملية تمارسها أية امرأة آلاف المرات . هي أيضاً ، طيلة أعوامها الستة والعشرين مارستها غالباً بألية رتيبة .

ولكن الأمر مختلف هذه المرة . تخلع ثيابها وعيناها تومضان بشرر شيطاني داعم ، بلعنة تصميم مقدس ...

بمخاض أفعى تخلع جلدها لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها .

إنها لا تخلع ثيابها بالضبط ، بل إنها تخلع أعضاء جسدها عضواً بعد الآخر إلى الأبد في وداع حاسم مرير ... إنها تخلع عنها شرنقة الحياة ولعنة القلب لتطير منها فراشة هاربة من الألم .

عارية . العروس عارية . العريس سكين . السكين تقطع شرايين الرسغ بهدوء . الدم الذي ظل يغلي داخل رأسها وجسدها طيلة أشهر يتفجر إلى الخارج ... الغرفة باردة وموحشة ، وتقع في فندق بارد وموحش ، يقع في مدينة باردة وموحشة ، في عالم بارد مظلم وموحش ... والرجل الذي كان مدينتها وشمسها ومنازلها قد مضى ... ليس هنالك ما تأسف لأجله .. تشعل لفافة .. تملأ (البانيو) بالماء الساخن ، وترغمي فيه وتلدخن ...

تم ، لا شيء ... الموت المحتوم ودفقة واحدة . وخبر آخر في الصحف قرأته وسواي عن امرأة انتحرت لأنها أحبت ... لأن القلب الإنساني الذي أسماه شكسبير ؛ « جوليت » ، (الصحف ذكرت اسم كارولين) ما يزال ينبض بالطريقة نفسها منذ قرون ، وحتى في عصر الإنسان الآلي ، وسفن الفضاء والقنبلة الهيدروجينية . انجبر يذكر التفاصيل ... ما الفرق ... اسمها لا يهم . الحكاية متشابهة ، تصادف ان

جوليت هذه المرة ألمانية ، وان حببها أردني ... والفندق في بيروت . الزمان : أول
البارحة .

...

أتابع قراءة جريدتي بينما تسقط الطائرة التي أنا من بين ركابها في بحر من الغيوم ...
أقرأ (سقوط طائرة ومصرع ركابها الثمانين وملاحيقها !) ...
أضحك للخبر :

لا أتمسك بمقعدي (ما الفرق ؟ سيحدث ذلك في لحظة ما ، في مكان ما ، أن
أستحيل وردة من دم ممزقة على اسفلت شارع من شوارع بيروت كقطعة دهستها
العجلات ، أو أن أموت في فراش وثير وحوالي الصبح والخلان كما ماتت الملكة
ليكوتوريا ، ما الفرق ؟) .

أتابع قراءة جريدتي « ٣ كانون الأول ١٩٦٧ ، من لا يذكر هذا التاريخ ؟ ... »
أنا لا أذكر هذا التاريخ ، ولا يهمني أن أذكر شيئاً . (تواريخ نكساتنا ونكباتنا
صارت أكثر من تواريخ أعيادنا...فلتكن ذاكرتي أداة للنسيان) .. ٣ كانون الأول هو
التاريخ الخطير لحدث ما في نظر الصحافة ... أي منذ عام ... اذن ، أيام ونحتفل
بذكرى أمر خطير ...

ما الحكاية ؟ لذا أتابع القراءة « انه تاريخ أول عملية زرع قلب في العالم ا . يومها
زرع الدكتور برنارد في صدر مريضه بلايرغ قلباً (جديداً) ، بالاحرى عضلة ضخ
جديدة ... يومها أعلن : متوسط عمر الانسان الذي يتغيه طب زرع القلوب هو ١٥٠
عاماً كمرحلة أولى . بلايرغ يريدون له أن يعيش ١٥٠ عاماً » ...

من المفروض أن تقبل على قراءة الموضوع باهتمام ، واعجاب بعقيرة الطبيب ونصره
الانساني (كما هو من المفروض أن يشعر أي قارئ سيعيش ١٥٠ سنة بفضل برنارد ...
تصفيق .)

لو ...

لو لم تقع عيني على الخبر المجاور ... والمجاور ... وعلى الجانب الثاني من الصفحة ...
وفي جريدة جاري ...

...

أتابع قراءة كل ما يحيط بهذا الخبر النصر من أخبار هزائم الإنسانية على أكثر من صعيد ... فيللو لي بعدها انتصار الدكتور برنارد مثل محاولة ناجحة لتضميد اصبع مصلوب ! تضميد اصبع انسان نسف بيته في القدس بعد أن كان قد قتل في فيتنام ، بعد أن كان قد مزق قلبه غدرًا وأسمي غيفارا في مكان ما من العالم ، بعد أن كان قد أعدم رمياً برصاصة تحترق قلبه في الجزائر ، وكان قد احترق قلبه في ثانية كابلجرة في هيروشيما أيام الحرب العالمية الثانية ، وقبلها كان قد أعدم خطأ في الحرب العالمية الأولى ، وتجمد قلبه على ثلوج روسيا الشاسعة وكان يومها يرتدي أوسمة نابليون ...

وأيضاً قبل أن يضمده له الدكتور برنارد جرح أصبعه (مشكوراً) ، كانت قد داست قلبه خلال عصور مركبات هولاكو وجزومات القياصرة ، وصخور اهرامات فرعون ... وما تزال ... وما تزال ... بطريقة أو أخرى ما تزال .

التهنئة بانتصار برنارد العلمي أحسستها في وسط الأخبار الباقية مثل نبتة في مستنقع مسموم ...

فإلى جانب عناوينه وصوره ، أطلت عناوين مقال عن « وسائل التعذيب التي تتبعها إسرائيل في فلسطين المحتلة » ... (وهجمت إلى عيني آلاف الصور ... بيوت تتسف ... رجال يُرمى بهم إلى الليل والعاصفة والمجهول في نعيم ما) ...

أطلت عناوين مقال عن الحرب الفيتنامية (وهجمت إلى رأسي صور آلاف من الجثث المشلوشة في العراء على طول أعوام ، بدمها المخثر على جراحها المفتوحة تحت القمر البارد المذهول) ...

• • •

... وسقطت في بئر بلا قرار . بئر اسمه تاريخ الإنسان . أسقط . تنهمر فوقه ملايين الأجساد الممزقة ، تضرب وجهي آلاف الاطراف المقطوعة ، التي ما زالت تقبض على بنادقها ، وسيوفها ، وهراواتها ، ونبالها ، ورماحها ، وأسلحتها الحجرية .

(هجمت إلى رأسي صورة « نوبل » العالم الذي اخترع الديناميت ، ثم كرس . ما جمعه ليكفر عن اختراعه الفتاك : جائزة نوبل للسلام ، أي جائزة لمن يسكب برميلاً من الماء على برميل البارود الذي اخترعه) ..

تابعت قراءة الصحيفة .. جرائم . افلاس . فشل . بؤس . مجاعات ، بؤس .
بؤس . بؤس .

لو صدرت صحيفة منذ ٣٠٠٠٠ سنة في الغاب ، هل كان يمكن لها أن ترسم
واقعا إنسانياً أشد وحشية ؟

كتابات الإنسان على جدران مغاوره الحجرية ، على أوراق البردي ، على هياكل
أورشليم وبابل ، هل روت قط مآسي جماعية مروعة كهذه ، وكالقتل الفريد للإنسان
الذي يمتاز به عصرنا ... حيث يتم اغتيال إنسانية الفرد ، فيموت الإنسان دون أن يكف
قلبه عن النبض . بل انه يموت مرات قبل أن يكف قلبه عن النبض بأعوام طويلة
طويلة ... يعيش خلالها — دون أن يحيا — عبداً للمؤسسات تحتكر انسانيته ، ويصبح
جسده تابوتاً متحركاً ، يتزلق كالشبح في الشوارع الشاحبة لمدن أصابته لعنة العصر ...

• • •

أي هول ، يا أخخي الإنسان ، أن تقرأ جريدة !! ...
أعني ، أي هول ، أن تقرأها ذات يوم بعين جديدة ، هي عينك الثالثة المخفية
داخل جمجمتك — أظن أن البعض أسماها البصيرة — .

... وإنسان العصر أوديب فريد المأساة ، فهو ينظر ولا يرى، ويرى ولا يبصر،
يا للهول، لقد سملوا عينه الثالثة (البصيرة) ! .. ولذا صار قادراً على أن يقرأ جريدته
كل صباح دون أن تصعقه مرة واحدة ويرمي به توترها قتيلاً ، أليس فيها من الشحنات
والمآسي أكثر مما في كرسي الاعدام الكهربائي من شحنات ؟ ..

البصيرة ؟ أسموها تارة بالوجدان وتارة أخرى بالقلب ...
البصيرة . أثبت التاريخ أن سملها ممكن ، لكن إبادتها مستحيلة .

• • •

« دعوا والدي يموت بسلام » ، هكذا صرخت ابنة صاحب القلب المزروع
« بلاييرغ » ، في أنامل الدكتور برنارد التي صممت على أن تصبیه بلعنة البقاء في هذا
العالم ١٥٠ سنة !! ...

أستعير كلماتها ... « برنارد ، دع الإنسان يموت بسلام » .. أضيف إليها :

ليس المهم أن تزرع قلباً في الإنسان .. المهم أن تزرع الإنسان في هذا العالم .

الحاوي برنارد .

ما جدوى أن تزرع للإنسان عضلة القلب ، ما دام يعيش في عالم هرم بلا قلب ، في عصر عجوز البؤس بلا قلب ! هذه المرأة الألمانية المنتحرة ، لبتك تستطيع أن تزرع قلبها في ضمير امته .. قلبها الذي أحب ذلك الاردني الذي تشارك بلادها في دفع ثمن رصاصة لقلبه !

اطالة الحياة ، ليست بالضرورة في اطالة العمر ... انما هي في (تقصير) أمد تعاسة الإنسان ، أو في محو أسبابها . الا ترى معي ان الذين ينقلد العلم حياتهم (بالمفرق) ، يتم قتلهم (بالجملة) في الحروب المعاصرة ؟

مأساة الإنسان لا تحلها عدة سنوات تضاف إلى تاريخ مولده ، وانما تحلها اضافة البعد الثالث الإنساني إلى سنوات حياته أبياً كان عددها ...

برنارد ، اطفئ شمعاً العيد الأول لاختراعك ، ونكسها راية هزيمة .

لماذا ؟

تعال معي إلى مقبرة ما .. مقبرة تقع في المستقبل ، أية مقبرة في أية مدينة بعد قرن . ستقرأ على رخامها : هنا يرقد فلان عن عمر ناهز المئة والثلاثين . قتل في الحرب العالمية الثالثة ...

برنارد ، لو أن شواهد القبور تحمل الأعوام الحقيقية التي عاشها صاحبها فعلاً ، أو بالمعنى الإنساني للكلمة ، لما حملت شواهد قبورهم (أولئك الذين قد يعيشون بفضل عشرات من الأعوام) أكثر من أشهر عديدة من (الحياة) الحقيقية لا (العيش) الحسائي ... ستقرأ : هنا يرقد فلان عن عمر يناهز المئة والعشرين بفضل برنارد لكنه مات مقتولاً في شرح شبابه هذا ، اذ اغتاله النظام الاستهلاكي لبلاده ودمر روحه عدة مرات ربمما أجهز عليه فيما بعد إنسان آلي لخلل مفاجيء في بطاريته ! وقد عاش من الـ ١٢٠ سنة تلك ثلاث سنوات فقط إذ أحب خلخالها يقيناً ما ، فخفق بذلك قلبه غير المزروع ، (البصيرة ، الوجدان) .

• • •

العلم سلاح ، أي أداة . تأليه العلم مأساة . استعماله واستخدامه هو الأهم . ان يظل عبداً ووسيلة ، بندقية تطلقها الإنسانية في حربها ضد الغاب ، بدلا من أن تحولها إلى صدرها وتنتحر بها ...

العلم صيدلية ، تستطيع عقاقيرها أن تشفي وأن تقتل . قبل أن يصرف لنا برنارد (وصفة) لمداداة عمر الإنسان كياً ، أي عددياً ، تقف أجيالنا الإنسانية الممزقة أمام صيدليته منذ عصور باحثة عن الدواء الذي يجعلها (نحيا) انسانياً ، سنوات (عيشها) الكمية تلك ...

• • •

برنارد ،

اذهب عنا ، لسنا بحاجة إليك في عصرنا هذا ، عصرنا المتخيم بالرقى العلمي ، المصاب بفقر الدم وافترال الانساني .

لا نريد (قلبك) المزروع ، نريد من يزرع الحياة في قلوبنا — مهما قصر أمد خفقاتها — ، نريد من يزرع فيها ما أسماه (برنارد) جاء قبلك بثلاثة آلاف عام وكان اسمه أفلاطون : « تلك الغبطة العزيزة على القلب » ، وما أسماه براوننج : « ايجاد معنى للحياة ، وغاية ، هو طعام قلبي وشرابه » وما أسماه ليوناردو دافنتشي « أنيل غبطة تضيء القلب ، غبطة الفهم » ... شكسبير قال : « أن تكون أو لا تكون ، تلك هي العضلة » ... وهذه لا تتوافر للإنسان إلا في عالم انقرضت منه شريعة الغاب وريثما يتم ذلك ، فإن إطالة أجل حيواناتها أو تقصيره ، لا علاقة له بتعميق البعد الثالث الأهم للحياة ، البعد الإنساني ... وأنت الذي تعرف كل شيء عن عضلات القلب وصماماته وأعصابه وشرائبه ، لا تعرف عنه سوى (القلب العضلة المضخة) ... ليس بالمضخة وحدها يحيا الانسان .. وآبار أعماقه بحاجة إلى من ينضح منها عتمتها ، ويخرج من دهاليزها الجماجم والمآسي المتركمة طيلة عصور ..

• • •

برتراند راسل ، فيلسوف السلام شبه الاعمى ، المرتجف اليدن يعرف كيف يزرع لعالمنا الوحش قلباً إنساناً أكثر مما تشفي أناملك الرشيقة ، بينما تزرع مضخة جديدة في قلب إنسان يمزقه أنه محكوم بأن يكون إنساناً محكوماً بالاعدام مع تكرار التنفيذ .

فليصفق لك عالم عصر الذرة ، ولتتهافت بحياتك مظاهرة تتحالف فيها حنجرة الرجل الآلي بقلبه البطارية ، مع حنجرة بقايا الإنسان المنقرض ، رجال ، أجسادهم توابيت متنتلة تحركها عضلة ضامرة اسمها القلب أيام كان الحيوان البشري إنساناً .

ولست وحدي التي أنظر اليك مشفقة على عصري منك .. « ميتا » في الاخوة كرامازوف يصرخ بلسان الملايين عبر ريشة ديستوفسكي : أنا أحد أولئك الذين لا يريدون ملايين من النقود أو الأعوام ، بل انما يرغبون في إيجاد أجوبة لأسئلتهم ، ومنازل لوجودهم .

• • •

برنارد ، هل قرأت (جحيم) داني ؟ أليست (جهنم) التي يصفها أقل فظاعة ووحشية مما يلقاه الإنسان في معتقلات التعذيب وساحات الحروب والسجون وأقبيّة المستشفيات ، وتحالف العلم والقدر ضده في عصرنا العجيب ، الذي استطاع انسانيته أن يتحرر بسفينة فضاء علمائه من الجاذبية الأرضية ، ولم ينجح في تحرير انسانيته من منطق العليين !

برنارد ، احمل ملاقطك وقفازاتك ومشطك واركب سفينة د . ش . ويلز ، سفينة الزمن ، وارحل بها عنا إلى العصور البعيدة السعيدة الآتية يوم ينجح الإنسان في زرع قلب لهذا العالم .

ولكن ، هل يمكن لمثل هذا العصر أن يأتي ؟ ..

برنارد . لا . قبل أن تلمم أدواتك الطبية وترحل ، اسمع ، لماذا لا تفكر باختراع جراحة لاستئصال (القلب الوجدان) بدلاً من زراعة القلب المضخة ؟ ...

٧٤/١/١٤

موت رقم ١

اليوم اشتريت مفكرة للعام الجديد ...

أحزني ذلك كثيراً ... شعرت بأنني أشتري كفنًا ... كفنًا لحماس الأيام القديمة ، أيام كان كل ما أقوم به مليئًا بالرغبة في ادائه والشهية للقيام به ، وبالتالي كنت معصومة عن النسيان لأنني كنت أنتظر بلهفة حلول مواعيدي كلها ...

نشترى مفكرة دون أن نلاحظ أننا نشترى جزءاً من قبرنا ... فكل لحظة موت للحماس هي موت جزء منا ، هي موت بعضنا ...

انك لا تستطيع أبداً أن تنسى موعداً أو عملاً ترغب رغبة حقيقية وكاملة في تحقيقه ... انك تنسى ما لا تحب بكل جوارحك ، وما لا تؤديه الا بفعل ضغوط شبه خارجية ... وهكذا تتحول الذاكرة الى أداة للنسيان كي نحمينا من أنفسنا !

ويوم نشترى مفكرة للمرة الاولى تكون قد دفعت القسط الأول لكفنك . فنحن لا نموت حقاً مرة واحدة ، وانما نموت بالتقسيط ، نموت موتاً بطيئاً لا نلاحظه وقلما نتوقف عنده ، نموت باستمرار ... وقد نسمي موتنا هذا نجاحاً ، وازدحام مفكرتنا بالمواعيد مع الأسماء اللامعة و (الهامة) انتصاراً ! ..

انني أشتري مفكرة هذا العام بكل شغل وأسى ... فقد صرت نهائياً في حاجة إلى تسجيل ارتباطاتي كلها ... ألا يعني هذا انني غير مرتبطة « حقاً » بأي شيء ، وان حقيقتي تطير بعيداً بعيداً عن التزاماتي ، مثل منطاد تاه في الفضاء بعد أن أفلتته من زمان يد اليقين والحب ، وعبثاً تستعيده ١٩ .

أشتاق ، أشتاق لأيام تكون مواعيدي فيها مثل نجوم في ليل عمري ، أرصدها ، وأرقبها ، وأنتظرها ، وأحفظ جيداً أوقاتها ... ولا أؤدي الا ما أتوق اليه بكل جوارحي وطاقاتي وذاكرتي . أشتهي أسبوعاً تكون مواعيدي خلاله وشماً لا يمحي في ذاكرتي ،

وأن يعود لكل يوم لونه المميز وطعمه وانتظاره الخاص . اشتتهي عودة الحماس إلى قلبي
(ولو أسبوعاً واحداً أموت بعده ، وأشتتهي ذلك مثل شهية حزمة من الدبناميت إلى
انفجار كامل !) .

والأصدقاء الاحباء أو الغرباء الذين يهدوننا مفكرة العام الجديد ، ألا يشعرون انهم
يهدوننا بعضاً من قيودنا الذاتية ، بعضاً من وسائل تدجيننا ، مطرقة لتطويعنا فوق
سندان « الزمن » ونار الالتزامات الاجتماعية واليومية ؟ ! .

صباحاً اشتريت مفكرة للعام الجديد ...

ومساء أحرقت مفكرتي ...

... فاغفروا لي أيها الرفاق إن نسيت مواعيدي معكم ! ..

إني في حاجة إلى موعد مع ذاتي ...

ولن أخلف مواعدي مع ذاتي بأي ثمن ، أنا التي اخترت منذ البداية أن أخسر
العالم كله على أمل أن أربح نفسي !

تأملات شبه نرجسية حول كتبي

لحظة تنتهي من كتابة أحد مؤلفاتك ، تعرف جيداً أنك قد مت.. ولكن أحداً لا يعرف أنك ميت . كل ما يلحظونه هو سلوكك غير المسؤول الذي يثقل حسك العظيم بالمسؤولية أثناء الكتابة .

— همنهواي —

الكتابة مهنة التوحد والعزلة . الأسرة ، والأصدقاء ، والمجتمع هم الأعداء الطبيعيون للكاتب . إنه بحاجة إلى أن يكون وحيداً ، لا يقطع أحد عليه عمله.. وهو يصير متوحشاً بعض الشيء إذا أرغم على كبح جماح كتابته .

— لورانس كلارك باول —

أعدّ قراءة ما كتبت ، وإذا أعجبك مقطع ما بصورة خاصة إعجاباً شديداً ، فاشطبه !

— صموئيل جونسون —

١٩٧٣/١١/٩

« حب » .. الكلمة الملعونة !!

الحب ليس نقيضاً للثورة .

الحب ليس نقيضاً للحس بالمسؤولية ، وليس نقيضاً للجدية في مواجهة قضايا الحياة .

وبعد هزيمة الخامس من حزيران نشأ تيار نقدي يصنف الادباء والشعراء والكتّاب الى نوعين : كاتب حب وامرأة ، وكاتب وطني . وحين تجرأ أديب مبدع ، سبق له أن كتب عن الحب ، على أن يخط سطوراً يحملها حبه للأرض وللوطن وحسه المرير بالهزيمة ، قامت قائمة النقاد ، لا لأن حروفه جيدة أو رديئة ، وإنما لمجرد أنه تجرأ وكتب عن الأرض بعد أن دنس قلمه بالكتابة عن الحب ! كأن ثوار العالم كلهم الذين نسمع بهم نذروا العفة ! كأن ملايين الرجال الذين قتلوا في الحروب هم مصابون « بالعجز » أو هم من صنف لا يقرب النساء ! والغريب أن العرب ، في غابر عصورهم ، لم يكونوا على هذا القدر من ضيق الافق النقدي و « العجز » الفكري ، وقد استطاع أجدادنا أن يفهموا جيداً نموذج عنثرة المقاتل والعاشق ، فلم يوجهوا إليه تهمة الخيانة العظمى لأنه تحدث عن الحب في زمن الحرب ، ولم يرمجوه لأنه حمل في عينيه صورة حبيته إلى ساحات الوغى ... وجه حبيته كان مقبض سيفه .

الدعوة إلى الحب جزء من الدعوة إلى تحرير النفس العربية مما علق بها عن مفاهيم مغلوطة تشوه انسانياتها وتعوق تفجير طاقاتها . وعلينا أن نتذكر من جديد أن جميع المقاتلين العظماء كانوا عشاقاً عظماء ، وإن نابليون كان يكتب رسائل عشقه الخالدة بالبارود بين معركة وأخرى ، وأنه من الضروري تحرير مفهومنا « للشاعر الوطني » من فكرة سطحية هي « الرهبة » العاطفية والجنسية . فالشاعر العظيم هو إنسان عظيم ، والإنسان العظيم هو القادر على ممارسة نواحي انسانيته كلها والتعبير عنها دونما خجل .

ولكننا نحب أن نضع الناس والكتاب في أدرج . نصفهم ونستريح . هذا أديب مقاومة ، وهذا أديب المرأة ... ان ملاحقة اتساع النفس الإنسانية وشموها ، وواقعها البشري الجميل ، هو فوق طاقتنا على الاحتمال . وأعتقد بأن تاريخ الادب العربي سيذكر بكثير من الدهشة والسخرية ان نقادنا أرادوا توزيع المهام على الشعراء مثلاً ولصاق بطاقات تحديد لمواهبهم : هذا شاعر حرب . هذا شاعر هزيمة . هذا شاعر حب . هذا شاعر نصر . هذا شاعر حزيناني . وهذا شاعر تشريفي . إنها المهزلة ، ومتى نكف عن الوقوع في الفخ نفسه ٩٩ ...

• • •

« حب » ... كلمة محيدة ..

وقررت أن أسمى كتابي الجديد « حب » ... وحين أعد لي ناشري ، غلافاً للكتاب رسمه فنان مصري كبير قلت له : « انه جميل ، لكنه لا يجسد فكرة الكتاب عن الحب . فصورة كيوييد التي رسمها فوق حرف الباء (في كلمة حب) تعبر عن مفهوم معين للحب يختلف عن مفهومي له . الحب ليس إصابة عشواء من الخارج كالشرح مثلاً ، وإنما هو سهم داخلي يغمده الإنسان في نفسه ويحمل مسؤولية جرحه .. ثم ان الفنان رسم كيوييد — كالعادة — طفلاً متورداً الصحة ، وإذا وجد « السيد كيوييد » فإني أتخيله رجلاً عتيقاً نحنكاً مثل سندبانة الأساطير ، شفافاً ونحيلاً ، وربما كان زنجي الوجه .

ثم إني لا أرضى برسم القلوب رمزاً للحب ، لأنني أؤمن بأن الحب يقطن الإنسان بأكمله ، وإذا كان لا بد من رمز للحب ، فليكن الدماغ قبل القلب ، توكيداً على أن الحب فعل مسؤولية ، وإبداع عن سابق تصميم وتصور .

وخفت أن أصدم القارئ برسم أدمغة على غلاف الكتاب ، بدلاً من قلوب ! وتضايق ناشري بما يسميه عنادي وشغبي ، وقررنا أخيراً أن أتولى أنا أمر إعداد الغلاف . وقررت أنا : الأمر في غاية البساطة . سيكون الغلاف كلمة « حب » بالعربية ، محاطة بكلمة « حب » ببقية لغات العالم التي أستطيع الحصول عليها ... سأذهب إلى الفنادق

• كان ذلك عام ١٩٧٣ يوم صدرت الطبعة الأولى من كتابي « حب » ، وقبل أن أستقل في « منشورات غادة السماء » .

والبارات وأسأل الغرباء عن كلمة « حب » ، بلغتهم ، وأطلب منهم أن يسطروها لي على ورقة ، وأجمعها ثم أكتبها على غلاف كتابي .

ولم أكن أدري أن كلمة « حب » ، في عالمنا المعاصر الشقي ، مثل حزمة ديناميت : وقنبلة يدوية نزعت فتيلتها فما تكاد تخرج بها حتى يقذف بها الناس بعيداً برعب مسعور !

ان كلمة « حب » في عصرنا الرديء مثل مرآة سحرة لا تظهر فيها الأفعنة التي تكسو الوجوه ولا يرتسم في صفحتها الا الوجه عارياً من دل ادعاءاته . ولأن أحداً في عصرنا الرديء لا يريد أن يرى وجهه الحقيقي ، تجدهم يحاولون كسر المرآة .

• • •

في البداية ، ذهبت وبعض الأصدقاء إلى أحد الملاهي الليلية ، وحين أنهت فتاة « سترپتيز » سويدية وصلتها ، اقتربت منها وسألتها بالانكليزية عن كلمة « حب » في لغتها ، وساعدني صديقها اللبناني على تفسير مطلبتي .

حب ؟ وانفجرت تضحك ساخرة ، وتأملني بدھشة كأني طلعت عليها من بين دفتي كتاب من كتب العصور الوسطى ! حب ؟ وثابتت ضحكها بصوت مخمور ، وحين ألححت عليها بطليبي ، وقفت فوق طاولة الملهى وبدأت تتعري وتصرخ في وجهي : « هذا هو الحب يا سيدتي الفاضلة ! » .

• • •

وفي أحد « البارات » التي تنزف أضواؤها الحمر القائمة دماء الليل الحزين المسموم ، تقدمتُ من صاحبة البار الستينية ، الايطالية الملامح ، وشرحت لها طلبي البسيط البريء . ففجرتني إلى غرفة الإدارة الصغيرة في « البار » وأضاعت نوراً قوياً فاجراً سلطنته على وجهها المتعب الذي بدا ، في الاضاءة الساطعة ، مهدماً وبائساً مثل مدينة نخوتها الحرب ، وقالت بصوت حزين : « هذا ما فعله بي الحب ! » .

قلت لها : « كل ما أريده هو أن تكتبي لي بالاطالية كلمة حب » . وانفجرت تبكي ... وتعبت الخمرة . وبدا أن السؤال فجر أوجاعها . وانها تريد أن تروي لي حكاية طويلة ما لبثت أن اختصرتها عندما خلعت عن رأسها « باروكة » شعر اصطناعي ،

وعن عينيها كمية من الرموش كالعناكب ، وكومتها أمامي على الطاولة مع خاتمها الماسي الكبير . وصرخت بي : « هذا هو الحب ! » .

• • •

في « بار » تعمل فيه فتيات باكستانيات سألنا إحداهن عن الكلمة ، فردت بلا مبالاة ميكانيكية — كدمية — : « كم تدفعون ؟ » .

• • •

قررت أن كلمة « حب » تفتح جراح « المعذنين في الليل » ، وانه من الأفضل أن أتابع المهمة في النهار مع أشخاص يحتفظون بكامل وعيهم (أو يتوهمون ذلك !) . ذهبت إلى سفارة بلد آسيوي بعيد ، وطلبت من أحد الموظفين أن يكتب لي الكلمة : فطلب إذنًا من أحد رؤسائه . وطلب الرئيس إذنًا من رئيسه . وحدث ارتباك وهرج ومرج ، كأنني جئت أنسف السفارة كلها !

ولم يكتبوا لي الكلمة إلا بعد أن أكدت لهم حسن نيتي ووقعت لهم تعهداً بأن هذه « العبارة » لن تستخدم لأغراض غير سلمية (!) أو سياسية ، وبعد أن قبل الموظف كتابتي لي على مسؤوليته الشخصية !

• • •

وسألت رجل أعمال هولندي عن كلمة « حب » بلغته فقال : « تعالي أريك صورة حبي » ، وفتح خزانته الحديدية مشيراً إلى كدسة دولارات !

• • •

ونزلت إلى مخزن جاراننا الأرمني أسأله عن الكلمة . هو رجل طيب وعجوز وأعور ويصق باستمرار قبل أن يقول أي شيء هام . وحين سألته عن كلمة « حب » بصق مرتين وتظاهر بأنه لا يسمعي ، وبدت في عينه الوحيدة خيوط أسف من أجل الجارة الوقور . وسألني فوراً عن صحة زوجي ... ورفض الرد على أي سؤال !

• • •

وسألت إحدى السكرتيرات الأجنبية عن الكلمة ، فقالت لي وهي تلملم أوراقها :

« لا تذكرى هذه الكلمة أمامي ! لقد طردت من عملي للتو بسبب هذه الكلمة المشؤومة ..
حب ؟ » وبدأت تبكي !

• • •

بالرغم من الحيشيات السابقة كلها ، من نقدية وغير نقدية وحرية ، قررت أن
أسمي كتابي « حب » ...

لا بالرغم منها ، بل بسببها !

١٩٧٤/٦/١٧

قصة القصة التي أحاول كتابتها !

أول البارحة ، استيقظت مع الفجر وفي رأسي ذلك الانفجار السري الذي أحوله غالباً إلى سطور مكتوبة هي قصصي ... استيقظت وأصابعي مكهربة كأنما وصلت بأسلاك لا مرئية إلى مولد أزلي أسماه البعض « الإلهام » . وله أسماء أخرى كثيرة منها « الجنون » ... كان الزلزال يحتاج دهايز روحي ، وأحسست أعماقي مضطربة ونارية مثل بركان على وشك الانفجار ...

وهربت إلى غرفتي الصغيرة الخاصة بحالات « الوضع الأدبي » . وعلى بابها أضأت النور الأحمر - كما على باب الاستديوهات - وهي إشارة تعرف منها أسرتي أن حريقاً شب في أعماقي . وأني لا أريد أن يحدثني أحد حتى ولو شب في البيت حريق ! ..

ولم أكد ألملم أوراقي وأفكاري حتى بدأ صوت حفارة بناء آلية ... صوت شرس قاس يفتت أفكارك وأعصابك كما يفتت الصخور والأحجار ... وحاولت أن أجمع كل مواهبي في « اليوغا » لأركز على عملي . كان ذلك مستحيلاً . وبعد دقائق شعرت بأن الحفارة تعمل داخل رأسي مثل ماكينة لطبيب أسنان جهنمي يحفر جسمي ! . كانوا يحفرون أساساً لبناء ضخم سيتم تشييده قرب قرميد بيتنا العتيق الوديع ... وانتقلت إلى غرفة الضيوف في بيتنا . وهي تقع في الطرف الثاني . وفوجئت بورشة من العمال بدأت العمل بهدم مدرسة « الفرير » القديمة تمهيداً لبناء جهنمي عصري آخر !

وأقلعت عن الكتابة وحزنت كربان جائع للرحيل وجد محرك طائرته معطلاً ... كان بيّ محاصراً بالضجيج وبنحون الآلات الحديثة .

وحاولت الاستغراق في « روتين » الحياة اليومية . ولكن ذلك كان شبه مستحيل . كانت جميع أنواع الحفارات الأخرى تحاصرني : حفارة الواجبات الاجتماعية ، حفارة العلاقات القديمة نصف الميتة . وحفارة الآخرين اللامبالين بأعماقك ... حفارة الزحام

والفضوليين والمفترضين أن من واجبي أن أراهم !

كنت مكهربة ، وأصابعي بدأ يسري فيها ألم غامض . وفي متشنج كما لو أن كمامة تقيده ... وفي حلقي صرخة مكتومة . واستمرت الحفارة طوال النهار . وعلمت أنها ستستمر طوال الشهرين القادمين على الأقل .

وفي اليوم التالي (البارحة) قررت أن أستأجر شقة مفروشة أهرب اليها للكتابة ... ووجدتها في الطابق السابع من بناء ساحر يطل على البحر . وعبر نافذة الشرفة كانت الأمواج تنجيء إلي وخط الأفق يبدو طليقاً ولا متناهيًا ... ودفعت إيجار الشقة الباهظ لشهر سلفاً ، وقلت في نفسي : ثمن القصة التي سأكتبها معادل لإيجار الشقة ، المهم هو أن أكتبها ، وليظل الافلاس شعاري !

كانت هنالك مشكلة ، وهي أن السرير يحتل الغرفة ويسرق منظر البحر . فهي شقة أعدت لانسان يجب أن يمارس أي شيء إلا الكتابة !!

وبدأت المتاعب التي بدت لصاحب الشقة سلسلة من الرغبات الغريبة الغامضة : لا أريد سريراً في الشقة ، أريد منضدة . صاحب الشقة يلفت نظري إلى التجهيزات المطبخية الممتازة فيها وأنا ألح على احضار «المبادير» له ضوء ساطع يصلح للكتابة والقراءة اذ لاحظت أن اضاءة المكان « رومانتيكية » جداً !

وبعد الظهر حملت أمتعتي ووجدت . كانت مؤلفة من منضدة « ولبادير » و « بليك آب » وأسطوانات وحقيبة سفر . وحين وصلت سقطت حقيبة السفر من يدي وانفتحت وظهر للجميع أنها تحوي أوراقاً ودفاتر و « نوطات » . مجرد أوراق بلا ثياب .. واحتملت نظرات الشك والدهشة التي بدت في عيون الجميع : صاحب البناء . ووكيله وموظفيه . وكنت مرهقة ومنبوشة الشعر . وبدوت حتماً مثل هاربة من العدالة . لا يهم ... لا شيء يهم غير أن أحصل على بعض السكنية لأكتب ! .. ومساء أغلقت باب الشقة بعد أن أعددت كل شيء ليوم عمل مقبل : طاولة الكتابة في موضع السرير أمام الشرفة . و « اللبادير » و « البليك آب » والأسطوانات ... وواجهت بعض المتاعب العملية الصغيرة كإيجاد « فيش حرامي » لادارة الأسطوانات واشعال نور الكتابة في آن واحد . واشتريت قهوة وسكرًا وتحفرت لليوم التالي ..

اليوم صباحاً نهضت باكراً وقد قررت الهرب من بيتي إلى الشقة الجديدة قبل أن تبدأ الحفارة بازعاجي . حملت بعض ما نسيته من أقلام وأوراق . وسقطت من يدي

المحبرة وتشاءمت (حين كتبت كتابي الأخير « رحيل المرافئ القديمة » استهلك نصف زجاجة حبر . احتفظت بنصفها الباقي تفاعلاً) واندلق الحبر الباقي لقصتي الجديدة على الأرض مثل دماء قتيل ، وتشاءمت ...

سرت بسيارتي المهملة بضع مئات من الأمتار . واكتشفت أن أحد اطاراتها قد « توفي بالسكتة » . هبطت وتركها حيث هي وركبت أول « تاكسي » . مستميتة للوصول إلى الشقة والكتابة . قرب الشقة اصطدم « التاكسي » بآخر . حادث بسيط انكسر له زجاج الضوء الأمامي وبعض أجزاء الهيكل الحديدي . وهبط السائقان يتشاجران ، وذهب أحدهما للاتصال هاتفياً بالشرطة وبخبر بينما الثاني يشرح لي كيف أن السائق الآخر هو المسؤول . وللمت أشياهي وهربت قبل أن يعتقلي السائق الآخر كشاهدة ! تابعت الدرب مشياً إلى الشقة . دخلت ، وجدت عبارة « المصعد في التشحيم » على باب المصعد . صعدت الطبقات السبع وأنا ألث وأشم السجائر . وأغلقت الباب وأقفلته مرتين . وقررت لو أن الأقفال تجدي لاشريت مجموعة منها أرصع بها الباب على طوله لأضمن عدم تسلل العالم الخارجي إلي . ولكن !

وضعت إحدى الأسطوانات وفتحت باب الشرفة وتركت النسيم الصباحي يدخل عبر مسامي كلها . وبالبهر العظم الشاسع غسلت جفوني وقررت أن أبدأ الكتابة ... شعرت بالرغبة في فنجان قهوة ، وفوجئت بأن الغاز لا يعمل ، لكنني لم أطلب إصلاحه كي لا يضايقي أحد ... كنت في حاجة إلى أن أكون وحدي وحدي ...

ولم أكد أبدأ الكتابة حتى سمعت ضرباً عنيفاً مستمراً وأطلت من الشرفة ، ففوجئت بعشرات العمال وقد انتشروا حول البناء الأصفر شبه العتيق الملاصق لشقتي ، وفي أيديهم مطارق ضخمة وقد باسروا بهدم البناء الصغير المجاور .. تمهيداً لاعادة بنائه بشكل عمارة ضخمة ! .. دقائق وبدأت سيمفونية المطارق والبناء ... وعما قريب تصل الحفارة !

قولوا لي أين أهرب ؟ ! . وأين جزيرة روبنسن كروزو لأذهب للاقامة معه ؟ أم أن الحفارة سبقتني إليه ؟ !

وهل صار روبنسن كروزو نفسه متعهد أبنية حديثة ضخمة وصاحب حفارات ؟ ..

أين أين أين المفر لأمثالي ؟ أم أنه محكوم عليهم بالموت في عصرنا ، وعما قريب يدفنوننا داخل اسمنت أساسات بناء جديد يشيد من أجل مزيد من الأبحاث لاختراع مزيد من القنابل المدمرة ؟ ..

وها أنا لا أستطيع كتابة شيء اليوم سوى : S.O.S. كررتها حتى امتلأت بها الصفحة . إنها شارة استغاثة السفن قبل أن تغرق . أين أين أين أهرب ؟ ! ..

ملاحظة : بعد أن كتبت السطور السابقة ذهبت وأحد الأصدقاء إلى برمانا بحثاً عن السكنية في غاباتها . وجدت مقهى نائياً على قمة جبل وجلست أتأمل الصنوبر وهمس الريح بين أشجاره . ثم أخرجت قلمي وأورائي لأكتب حين فوجئت بصوت حفارة في قاع الوادي . وكان لصوتها شبه قهقهة ساخرة وحشية . الأمر لا يصدق ! لكن . ببساطة ، حدث لي . كأني مرصودة لتلاحضي أنواع الحفارات كلها .

باختصار : تم اجهاض القصة . !

• كانت تلك هي محاولتي الأولى لكتابة روايتي • بيروت ١٩٧٥ .

٧٤/١١/٩

بحزن غابة تحترق ، أقول ...

في مثل هذا اليوم منذ أربعة أسابيع بدأت كتابة روايتي « بيروت ١٩٧٥ » . في الحقيقة ، لم أكن أقصد كتابتها . كنت أنوي إعادة كتابة رواية عذيتي طيلة ثمانية أعوام وهي « السقوط إلى القمة » ، أشهر رواية عربية « غير منشورة » ! لكن الذي حدث هو أن شخصاً رقيقاً يحب المال والشهرة اسمه « فرح » تدخل بيني وبين أوراقي : وفرض علي أن أكتب حكايته مع بيروت .

هذا الشخص لم ألتق به قط في حياتي ! لقد نَبَتَ داخل دماغي وتوسل إليّ أن أروي حكايته . (هكذا يفعل أبطال قصصي دائماً . انهم يسكنونني كالأرواح ويرغموني على نقل أصواتهم ، فتصير حنجرتي أداة لصراخهم) . وقررت : سأكتب حكاية فرح مع « بيروت ٧٥ » في قصة قصيرة ، ولن يستغرق الأمر أكثر من أيام ثم أعود إلى روايتي « السقوط إلى القمة » .

ولكن كاتب القصة أداة لأصوات كثيرة تسكنه . ولعل عقلي الباطن ، حين التقط عبارة « بيروت ٧٥ » ، تفجر كل جنونه ، كل حزنه ، كل ما رصده طيلة هذه الأعوام ! فهو لا يرى في بيروت « سويسرا الشرق » ، كما يقولون ، وإنما يرى فيها جزءاً من الأرض العربية ، وكل ما يلدور في بيروت يعكس ما يلدور في النفس العربية ، في كل قطر ، من أحلام ومآس وأوجاع اقتصادية وسياسية وقهر . كل ما في الأمر أن طبيعة بيروت تعري الناس بقسوة أشد وبسرعة أكبر ، فتدبثهم ويدبثونها ، وتسلمر بعضهم وتحرق البعض الآخر ، ومن الناس من هو كطائر الفينيق يبعث دوماً من الرماد أشد قوة ونضارة ونقاء ...

ووجدت أمثال هؤلاء الناس يصرخون في أعماقي . في البداية كانوا يتوسلون إليّ أن أكتب قصتهم ، ولم تنقُض أيام وإلا وصرت عبدة لهم لا أملك منهم فكاًكاً . ولم أعد

أنظر أن يتوسلوا إليّ ... صرت أستحضرهم وأنهض قبل الفجر لأكتب حكاياهم ولم أعد أعرف النوم الحقيقي (اشتاق إلى النوم . إلى السكينة . إلى السلام !) وهم لا يتركون لي لحظة سلام . ياسمينة ، وفرح ، وأبو الملا ، ونمر ، وطعان ، ونیشان ، وفاضل ، وغيرهم ... كلهم صرت مسكونة بتفاصيل حياتهم . بحكاياهم . بصرخاتهم . بآمالهم . بسقطاتهم . ليس صحيحاً أن الكاتب يخلق أبطال القصة . الصحيح هو أن أبطال قصته يستبدونهم . أنهم في البداية ينبتون في داخله : لكنهم ينفصلون عنه بسرعة و « يكونون » ، بل ويرتدون عليه أحياناً ويرفضون أن يقولوا إلا ما يخرج من طبيعتهم كبشر مستقلين ، وحتى أنهم يرتدون على الهيكل العام للقصة ويعدلونه بما يتفق وصفاتهم ككائنات حية حرة ! وبدأت حريتهم تأكل حريتي ... وبدأت أفقد صلتني بالعالم الخارجي ... ها هم يغفلون على أصابعي كل ساعات النهار ، يرقصون بين جلدي ولحمي ، ويستلقون داخل عظامي ، ويتسلقون أهدائي ، ويخرجون من وسادتي حين أحاول النوم ، ويقرفصون قرب السرير بعيونهم المغفورة ، محدقين في وجهي في الظلام كي أنهض وأتابع كتابة حكاياهم . فهم يعيشون فقط من خلالي ، وهم مصرون على الحياة ولو قتلوني . وتحولت بين أيديهم إلى مجرد وسيط روحي كل مهمته هي نقل رسائلهم ورغباتهم ! ولأجل ياسمينة وفرح وأبو الملا ونمر وطعان وغيرهم من أبطال قصتي « بيروت ٧٥ » انفصلت تماماً عن دوائري الاجتماعية كلها ، ولم تعد أسرتي هي أسرتي ، فأنا أعيش مع أولئك الأشخاص الوهميين الذين أكتب عنهم ... ننشأ أحياناً ونتصافى في ساعات طويلة من الكتابة التي لا يقطعها شيء .

لقد تسللوا حتى إلى أحلامي ، وقد حملت بالصياد أبو مصطفى ، ذي اليد نصف المقطوعة . ونهضت من نومي مذعورة ، وهرعت إلى مكتبي ، وحملت أوراق المخطوطة المثلثين ، وبدأت أرميها ورقة ورقة إلى سقف الغرفة في قلب الليل والظلام وأنا أصرخ بهم : ارحلوا عني واتركوني أنا !!!

...

ولم يرحلوا عني .

فقررت أن أرحل عن نفسي . كان ذلك ظهر يوم الثلاثاء ٢٩ تشرين أول (أكتوبر) ، انطلقت بسيارتي إلى غابات « حريصا » ... دوماً أهرب إلى البحر أو إلى الغابة . هنالك فقط أملاً بطارياتي النفسية المستنفدة بشحنة جديدة من حب الحياة لأجل الحياة . وغابات

حريصا كثيفة ، وجميلة ، والبحر يطل في القاع . انك تسند رأسك إلى صنوبرها وتأمل البحر وتغمض عينك ، فتحس بالرضا المالح ينسل وجهك ، ويخيل إليك أنك تسمع صوت اصطخاب أمواجه . وقبل جرنية بقليل انعطفت سيارتي وبدأت أصعد الجبل إلى الذروة حيث تمثال « سيدة لبنان » ومشهد طبيعي من أجمل مشاهد العالم . أوقفني رجال الجيش وطلبوا مني العودة .. وفوجئت بأن الغابة تحترق ! .. هل شاهدت قط غابة تحترق ؟ .. ربما كان نيرون وحده يستطيع الاستمتاع بمشهد احتراق روما أو غابات « حريصا » ... وأنا لا أنكر أن المشهد كان جميلاً ! .. كل هذه النار تأكل الأشجار وتسري في الجبل بسرعة وشراسة كما يسري الحب في القلب ويحتاج كل شيء ويحرق كل شيء لتغذي النار أكثر ويتصاعد لهيبها . وكان الدخان يركض نحو الذروة ويلف الجبل بغلالة تشبه الضباب ، حزينة كحزن القلب بعد انطفاء نار الحب وبقاء الرماد والقتلى ورائحة المهشم وحطام المراكب ...

أعترف ، كفتانة سحري المشهد للوهلة الأولى ، ونسيت كل شيء عن أبطال قصتي . وبقيت وحيدة أتأمل ، واخترق قلبي حزن عميق عميق ، فالذي كان يحترق أمامي ليس هو الغابة ، بل هو رمز لكل ما هو جميل وبريء وحي في لبنان ... وليست الأشجار وحدها ما يحرقها قصر نظر المسؤولين وعدم تفكيرهم سلفاً بشراء طائرات حديثة لاختماد الحرائق المتوقعة في بلد حار ومليء بالغابات كلبنان . فالإنسان يحترق في لبنان كما تحترق هذه الغابة أمامي ، وللسبب نفسه (الإهمال ، وقصر النظر والتخلف .. إلى آخره) . ولم تعد الغابة غابة ، وإنما رأيت الأشجار تستحيل إلى آلاف المواطنين الذين يشتعلون ويحترقون . وامتلاً أنفي برائحة اللحم البشري المحترق ! صارت الأشجار المحترقة قافلة من الناس المشتعلي الرؤوس ... وتعالى الصراخ ، وشعرت بأني أنا أيضاً أحترق ... وعدت إلى البيت والدوار يلتهمني وفي صدري دخان ... دخان ... ودمع ...

وفكرت « بالتلفريك » الذي يصعد فوق هذا الجبل الجميل الذي كان حتى البارحة مغطى بالأشجار والغابات ... اذهبوا أيها الناس إليه واركبوه في رحلة سياحية لا سياحية ! لن تشاهدوا بعد الآن غابة « حريصا » الخضراء ، وإنما ستشاهدون رقعة محترقة من الأرض ، وجثث الأشجار المحترقة مشلوعة في هشيرها ... تأملوها من بعيد وقولوا :

هذه صورة عن مقبرة حياتنا ، وعن المصير الذي ينتظرنا إذا لم ... إذا لم ... (هل أقول الكلمة أم تعرفونها جميعاً ؟) .

...

وعدت إلى أبطال قصتي ، لا مفر منهم ! حتى الغابة لم تعد بلجاً . لقد احترقت ، واحترقت في داخلها ساعات من عمري ، وضحكاتي ، لحظات صفوي المخبأة في جذوع أشجارها . وودعتها وانتهى الأمر ...

وعما قريب أودع أبطال قصتي . في الأسبوع المقبل يتعرف اليهم قرائي وتنتهي علاقتي بهم تماماً . وهذا أمر محزن . دوماً أحن حينما أنتهي من كتابة قصة وأفارق أبطالها . أشعر أنني ودعت انساناً غالياً : انساناً أحبيته بصدق لفترة ومنحته كل وجودي لفترة وأنا أعرف سلفاً ومنذ البداية أن فراقنا كان محتوماً ...

ولكن ... وداعاً ...

وداعاً لمن اجتاحتني كالانتحار . واستولى على كياني كني ! ..

بحزن غابة تحترق أقولها ...

وداعاً « بيروت ٧٥ » وإلى لقاءك مع القراء !

١٩٦٨/١١/٥

.. وحياتي ملحمة تبدأ من عتقي فما فوق !

« مهداة إلى غسان كنفاني »

وأخيراً ، جاءت « اللحظة الذروة » ...

لحظة امتزاج كل ما في طاقة الإنسان على الألم ، بكل ما في طاقته على النشوة ، في
توتر نادر مروع عجيب غامض ...

وللمرة الرابعة في حياتي ، أعيش تلك الحمى الخلاقة القائنة ، لالتقاء غروب
الاحتضار وفجر الولادة ، وعناق سلبية الشلل مع توقد التفجر ، فصاحة التوازن
وهديان القوضى .. عشتها للمرة الأولى وأنا أنسطور كتابي الأول « عينك قدرتي » .
التهيت بها للمرة الثانية مع كتابي الثاني « لا يجر في بيروت » . وعرفتني للمرة الثالثة مع
كتابي الثالث « ليل الغرباء » ... وها أنا اليوم بعد طول مخاض على عتبة بلوغ نشوتي
الرابعة .

• • •

وأخيراً جاءت « اللحظة الذروة » ..

وأشعر الآن بالضييق وبالغيب وأنا أتحدث عنها لآلاف القراء ، بل وبالمهانة أيضاً ! ..
بالضبط « المهانة » هي الكلمة . لا ليست « المهانة » هي الكلمة بالضبط ! ! .. ثمة شعور
يفترسني الآن وأجهل الاسم الدقيق له ، وهو يشبه احساس امرأة راضيت بأن تنقل
شاشة التلفزيون لآلاف المشاهدين عملية ولادتها ، وها هي يجلدها وجعها العاري
وفضولهم السري .

لكنني أيضاً أعجز عن الكتابة الآن عن أي شيء آخر .. ربما لأنني أكتب لك وحده

هذه السطور (أنت أيها الشقي) ، لكنه تشويها المهني ككُتَّاب يدفع بنا باستمرار إلى ممارسة ماسوشية تعرية الذات الحميمة على شاشة الأبيجدية العنومية كالر صيف والمقهي ! ...

أكتب إليك الآن يا غسان رداً على رسالة منك عندها حوالي العام قلت لي فيها « بالنسبة إليك ، الحياة ملحمة انتصار تبدأ من عنقك فما فوق . الكتابة وحدها درعك ، وحدها تجلو حقيقتك ، أكثر مما يجلو أي (ميني جوب) » أنوثتك .

أكتب اليك لأقول : ها أنا للدرة الرابعة في حياتي أكتشف أنني أدوخ بعض الوقت لكنني لا أدوخ كل الوقت . واني أوظف (دوازي) في خدمة الشيء الوحيد الذي هو أنا : الكتابة .

وأخيراً جاءت « اللحظة الذروة » ..

ويلزميلي أدق باب ذلك الميكل الكوكب ، حيث النار السوداء تحرق وتضيء ، ثم خطوة واحدة ، وأنقل بها من ترحال الغجرية إلى الغوص في تلك المغارة الرهيبة التي هي نفسي .. وعلى أرضها أفرش حصيلة ما يبدو من الخارج تسكماً وعبثاً : صيدي وفتلاي وحطام مراكبي وبخوري وبقاقي الصحافية والكاميرا وجواز سفري المهور بعشرات الأختام ، ودرجاتي العلمية وانتحاب الريح عبر ثقب شرعي .. هذه كلها أكومها إلى جانب شبكتي الخاصة بصيد أسماك الأبيجدية ، وما تزال تقطر منها ملوحة الموج العاصف ، وملوحة الصمت الدامع المنزوج بمطار شوارع نسيت اسمها في مدن نسيت لياليها ...

قبل دقائق ، قاذني إلى هذه الغرفة ببنائية بيكاديلي للشقق المفروشة رجل أعور ، حلق جيداً في حقائبي وبدا في عينيه بريق غير ودي وهو يتخيل قمصان النوم الشفافة التي لا بد وأنها تحتويها ، ثم أرشدني إلى قفل الباب بلهجة ذات معنى وكأنه يشتم الغانية الجليدة التي حلت بالمبنى ... كدت أصرخ به : « بعينك العمياء حلق بي جيداً وبحقائبي تفهم » .

ميني جوب : موضة ثياب قصيرة تكشف عن الساقين حتى منتصف الفخذين كانت شائعة في أواخر الستينات .

لكنني لم أصرخ ، وهو تابع التحديق بعينه التي يتوهما سليمة : عين البصر لا البصيرة ..
 ها أنا الآن أكتب اليك يا غسان ، وقد تناثرت حولي الأوراق والمخطوطات والمذكرات
 التي كانت تملأ حقائبي الثلاث ، وبعد لحظات أفتح الحقيبة الرابعة (جسمتي) ،
 المملوءة بكلمات لم أقرأها بعد ، وما زلت أجهلها ، المسكونة بمخطوطات أحداث لما
 أفك شيفرتها بعد ، وبصور ووجوه لما أترجم بعد حركات شفاهها المتوترة وصرخاتها
 الخرسى .

وفجأة يا غسان ، تمتلئ الغرفة بهذا كله .. وأجلس أقرب الوجوه نخرج من سطور
 الرسائل ، وصرخات الرجال تتعالى من صدورهم ، وأحزان النساء المكسورات تندفق
 من قوافلهم داخلي ، ويهطل المطر ، وتنفخ الريح ، ويتعاقب الليل والنهار والصاعقة
 والصحو ، وفي لحظات تتعاقب الفصول عليها على روحي : فصول الزمن الذي أنا
 شاهدته وضحيت به وجلادته ! ...

• • •

أذكر الآن يا غسان بوضوح حوارنا الأول في مطلع عام ١٩٦٤ . أرى الآن
 بوضوح وجهك النسر الذي عرفته منذ بدأت مأساتي وأسطورتي معاً أي منذ هجرت
 مدينتي دمشق وبدأت رحلتي نحو جحيم الوعي والصدق مروراً بطريق بيروت .

قدمت لك كتابي الأول « عينك قدرتي » هدية . وقلت لي « لقد اخترت طريقاً
 شاقاً . ستلتقيين بكثير من الذئاب » . قلت لك « سأصير ذئبة ! » قلت : « لا أعني
 الذئاب بمفهوم الأفلام المصرية التقليدية . لا أعني ذئاب الجسد . أعني ذئاب الوعي
 والاكتشاف . ذئاب التخدير والضياع والصحو والانتماء وذئاب الحيرة . الذئاب التي
 سوف تنبت في داخلك » ..

وظللت يومها صامته يا ذئبي العزيز ، وأنت تقلب الصفحات الأولى في كتابي
 الأول ، وتقرأ الاهداء لأبي : « إليك ، يا أول من أحيت ، لأنك علمتني كيف أصنع
 قدرتي » .. همست وقد أضاعت عينك بذلك الشعاع الأخضر الداكن : « هل قررت
 أن تكوني من الذين يصنعون أقدارهم بأيديهم؟ » .. ظللت صامته واستمتعت بنظراتك
 وهي تضميني إليها بخنان مصلوب عتيق يرقب نصف حزين نصف ساخر (طالبة صلب)
 مصرة على النجاح في عملية الصلب الذاتي ودرب الجملعة الداخلية ...

كان ذلك منذ أقل من خمسة أعوام تقريباً يا غسان ... وأنت دوماً تؤكد لهم :
« الكتابة حقيقتها » ... وحينما لا أكتب تدافع عني بقولك : « ها هي تعيش مرحلة
الاستسلام الشجاع لحقيقة الأشياء ، لكنها لن تلبث إلا أن تستعيد ذاتها وصوتها » ...
وحذلك تقريباً تؤمن « برأسي » رغم عدم كرهك لما تبقى مني !! ...

يسألونني هم ، أحباء وأعداء : « لم نقرأ لك نتاجاً أدبياً جديداً منذ زمن طويل .
ماذا حدث ؟ أهـي لعنة الصحافة واستنزافها ؟ أم لعنة التشرد ؟ أم صباك العايب ؟
الأثنى فيك بدأت تلتهم كاتبة القصة ؟ » يسألني بعضهم بطيب نية وحب ، ويسألني
البعض الآخر بشماتة مهزوم يذكر مهزوماً آخر يهزيمته . وكنت أقول لهم الحقيقة :
الأخرى ما تزال هناك . ربما أكثر من أي وقت مضى . المجمع أنني وحدي أعرف
ذلك ، إذ إنكم لا تستطيعون أن تعوا وجودها إلا بعد أن تثبت لكم ذلك على شاشة
كتاب مطبوع .

ويسألونني : متى ؟

وأقول : لا أدري ! ...

...

ثم حدث الأمر فجأة ... وليس بالضبط « فجأة » .. فالعمل الأدبي ليس وليد
الصدقة ، ولا لقيط اللحظة .. وكما يسبق تفجر الينابيع مرحلة صامتة من اختزان التربة
للمطر والندى وربما الدموع ، وكما الكمأة جذورها لا مرئية في رعد سابق ، كذلك
كانت أيامي الأخيرة المدركة كلها منذ صدور كتابي الأخير « ليل الغرياء » في حزيران
١٩٦٦ .

وبعد مرحلة أستعير تسميتك لها ، هي « مرحلة الاستسلام الشجاع لحقيقة الأشياء » :
جاءت اللحظة الذروة ... وها أنا في شقة مفروشة مهجورة منسية لا أحد يعرف فيها ما

• عانيت مرحلة امتدت بين ١٩٦٦ (وقت صدور ليل الغرياء) حتى عام ١٩٧٢ (يوم صدور كتابي :
رحيل المرافئ القديمة) لم يصدر لي فيها أي عمل قصصي . وللأسف صدره رحيل المرافئ القديمة
بعد موت غسان كنفاني بأشهر !! ...

أنا ولا أحد يعرف خارجها أين أنا ، أبداً أخيراً إعداد روايتي الأولى « السقوط إلى القمة » . فللمعمل الأدبي توقيته الخاص . قد يأتي « قبل الأوان » في نظر بعض الناس . وقد يأتي أيضاً « بعد الأوان » في نظرهم . ما لا يفهمونه هو أنه لا علاقة لهم بهذه التفاصيل ، وإن له توقيته الخاص . العمل الأدبي لا يعترف بتذكير الناشر حول « بداية موسم النشر » . لا يعترف بتوقيت خيرا « العلاقات العامة » . لا يعترف بتوقيت (الأصدقاء) الذين في صداقتهم ما يجعلك تحلم بأعدائك وتتوق إليهم !! ...

الأدب تجمع وتحمس وتوازن ، وأدب (البوزات) الذي يبدأ بارضاء الأصدقاء وصالونات الحلاقة ، ينتهي تحت الشوارع ومن ثمة في حفل كوكتيل بأحد الفنادق الفخمة .. وأنا لا أنتمي إلى (الكرفال) رغم أنه يحلو لي أحياناً الاندساس بين صفوف (نجماته) على سبيل المراقبة لا (المصاهرة) .. وحتى أنت ، تخاف عليّ أحياناً من نفسي وإلا لما كتبت لي « اطرحي مرة وإلى الأبد حيرتك الأنثوية المغيظة بين رأسك وركبتك ، فاكسب مرة وإلى الأبد رأسي ورؤوس الآخرين ، وتكسين رأسك » . بالمناسبة ، رسائلك يا غسان هي أجمل ما قرأت ، وأجمل ما سيقراه الناس بعد موتنا معاً . أقولها الآن ، الساعة ٧ و ١٨ دقيقة من مساء يوم ١١/٥/١٩٦٨ ، ولكن أطفالاً يولون في هذه اللحظة سيردون فيها بعد عشرات الأعوام ، وسيرردها أولادهم من بعدهم ... رسائلك إليّ هي أجمل ما كتب في اللغة العربية بعد القرآن ! ..

ها أنلدي هنا ، وحيدة ، ملعونة ، تخوف الأمهات بناتهن بمصري في معرض حضهن على تعلم فنون الطبخ ومخادعة الزوج .. ها أنا هنا ، نائية ومهجورة ودمشق بصفتي من ذاكرتها ودمغتي بالرفض .. حينما تفوح من أوراق رائحة موسم التفاح المقبل ، وزهر الليمون الذي سينبت في حقول ورفي ، أحسني قوية مثل أميرة ججيمة ، وبرية ، مثل لبوة تفتش في حقول اللغة عن فريستها .. وأحسني أستطيع أن أغفر لنفسي أي شيء وكل شيء ، إذا استطعت أن أتعلم المزيد عن ردم الهوة بين اللغة والفكر ، وإذا استطعت أن أنمو فوق آلامي وأن أنتشر كالعشب داخل أرض آلام الآخرين ...

• « السقوط إلى القمة » : أشهر رواية عربية غير منشورة . كتبها فسق مخطوطها في مطار أجنبي ، ثم أعدت كتابتها وضاعت ثانية ، ثم أعدت كتابتها وكانت جاهزة للطبع حين احترقت في الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ يوم انفجر صاروخ في غرفة مكنتي وأنى على كل ما فيها .

أين أنت يا غادة ؟ ماذا تفعلين بنفسك في غرفة مفروشة خلف الغرباء فيها آثار شهواتهم وقبيحتهم ، أنت أيتها الوردة الدمشقية التي نبتت فوق نجمة في « ساحة النجمة » ؟

أنا هنا . وحيث أكون تكون دمشق وساحة النجمة .. في البداية كنت أظن أن « اللحظة الذروة » بحاجة إلى مكان هادئ وناء ومنعزل كهذا المكان .. الآن ، أرى أن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من أن أطلع عني جلدي القسري ، جلد الحياة اليومية والعلاقات الآتية ، وأعلقه في مقعدي بالمقهى ليقده الضجر . بعيداً عن جلدي . وعن صوري في النفوس والصحف ، وعن الأحكام بالإعدام الصادرة بحتمي من خلف أقمعة الحب الاجتماعي ، إني أنا أظن أنا ، وحياتي ملحمة تبدأ حيث أختار ، فقد أعلنت نفسي كائناتاً حياً ، ما هو يعبّد لنزواته ، لكنه أيضاً ليس خجلاً بها ! ...

...

غسان ، أيها الشقي ..

لقد حملت معي إلى هذه الغرفة امرأة متوسطة الحجم علققتها على مسمار واحد عجيب الموضع : فقد وجدته مدقوقاً في جدار عار على علو خاص ، إذ إنه لا يتيح لي أن أرى من نفسي في المرأة ، أكثر من عنقي فما فوق ! ..

أنا أأمل نفسي في المرأة ، ويخيل إليّ أن ما تبقى من جسدي غير الظاهر فيها قد تلاشى تماماً .. وأنها ليست صدفة أن يكون المسمار مدقوقاً في هذا الموضع بالذات . كأنما هو سر صود لذلك . كأنما دقته اليد نفسها التي تخطط لقدرتي ، والتي كنت بوقاً لها يوم كتبت لي « بالنسبة إليك الحياة ملحمة انتصار تبدأ من عنقك فما فوق » ...

من دق المسمار ؟ أظن أنني أنا فعلت لحظة دخولي إلى الغرفة ! ...

...

أين أنا ؟

ما الفرق ! ... في مكان ما ، في غرفة ما ، أعيد ولادة ذاتي للمرة الرابعة بعد

« عيناك قدري » و « لا بحر في بيروت » و « ليل الغرباء » . الغرفة حقيرة وبائسة ولا
تليق بزهرة الياسمين الدمشقية القادمة من ساحة النجمة بدمشق ؟ ..

ذلك لا يهم ما دام العالم نضراً ومتألّقاً داخل حجرات روحي ، ومن النوافذ الشاسعة
لقلبي تهب رياح تشبه الموسيقى ... وفي موضع المرأة أقرأ قدري ! ...

١٩٧٣/١٢/١٢

وهذا أيضاً نقد أدبي

كل صباح أطلع في الصحف عمود الوفيات لأطمئن إلى أن اسمي ليس بين الأسماء ، ثم أنتقل فوراً إلى صفحة الجرائم لأنها ، في نظري ، تعبر عن واقع الشعب وأوجاعه وانفجاراته أكثر من البيانات الرسمية كلها . وكل صباح أشتبه أن أقرأ حادث سطو على مكتبة . أجل ، حادث سطو على مكتبة ، يقوم فيه « الجناة » بسرقة بعض الكتب الجميلة . فالتاس يسرقون كل يوم ، يسرقون الذهب والماس والحشيش ودواليب السيارات والسجائر ، ولكن لم يحدث قط أن حوكم انسان لأنه سرق كتاباً مثلاً ! وأقصى أحلامي أن يتم سطو على مكتبة ما من أجل سرقة كتب — من بينها كتبى — لا بغرض التجارة وإنما القراءة (من يشتري كتاباً ؟ ومتى كان الكتاب غير خسارة مادية للبائع والشاري ؟) .

وهذا الأسبوع تحقق جزء من أحلامي ... فقد تبين أن كتابي الجديد « حب » الذي أرسلته إلى أصدقائي من صحافيين وكتاب ، ضاعت أكثر نسخه فلم تصل إلى أصحابها وإنما وصلني أنا أكثر من عتب ...

إلى الذين « سرقوا » كتابي شكري العظيم . لقد غمروا قلبي بالفرح ، لأنه لم يحدث كثيراً في بلادي أن أحب أحد كتاباً إلى حد السرقة ...

إلى أولئك المجهولين الطيبين البسطاء أقول : عملكم هو أجمل نقد أدبي كتب أو سيكتب عني ! فشكراً ، وغفراناً لكم !

١٩٧٤/١٢/١٦

قلبي بلاط الغربية !

رسالة ...

... ووصلتني من أحد قرائي في مستشفى المجانين ... رسالة محملة بالأسى . بالوجع .
بالضيق والعذاب . عشر صفحات كاملة مشحونة بحمي الهذيان ...

وضمنت الرسالة إلى قلبي ، فقلبي بلاط الغربية ...

وتذكرت رسالة مشابهة كتبها لي رجل ارتكب جريمة ، وبعد أن سطرها انتحر ...
ووصلتني في البريد بينما كان الدود قد بدأ يلتهم جثة كاتبها (مهدي اليقوي) ...
كثيرة هي الأحزان التي تصلني بريدياً ! وحين أستلم بريدي أشم منه رائحة المطر
والدمع ، ومن بعضه يقطر الدم ... رسائل من السجن ، من المطارات ، من آبار
اليأس ...

وتذكرت مئات الرسائل الحائرة ، المتأللة ، الغاضبة ، المفترسة ، التأهبة التي تصلني
كل أسبوع ، وأضم وجع قلبها إلى وجع قلبي ، وأقرأ في عذابها نوبات مختلفة الايقاعات
لعذابني كائناتة ومواطنه ... كأنني كاهنة الوجع في ليل الغرياء ! ..

ووعيت فجأة : « لم يكتب لي أبداً إنسان سعيد !!! »

لم يكتب لي أحد ليقول لي انه سعيد راض ! فلماذا ؟

ترى لأن السعداء لا يعرفون القراءة ولا الكتابة !؟

لحظات حارة

تعلم الناس العمل ، لكنهم لم يتعلموا الحياة .

— مكسيم غوركي —

« أحبوا أعداءكم » ؟ لا ، بدلاً من أن تحبوا
أعداءكم ، عاملوا أصدقاءكم بشكل أفضل قليلاً .

— اد هوي —

إنه لصديق جيد . فهو لا يظعن من الخلف ،
وإنما مواجهة فقط .

— ليونارد ليفنسون —

٧٤/٧/١٥

لمسة حنان ... قبل السفر !

تسلمت اليوم نتيجة تحليل دمي :

قرأت في البطاقة « 0 » ايجابي .

لم تذكر البطاقة أي شيء عن درجة غليان دمي ، ولم يلحظ أحد وجه حبيبي الذي يسبح كالسمكة داخل شراييني . ولم يذكروا شيئاً عن درجة المرارة في دمي ، وحدود الشوق والنسيان ...

لا شيء سوى « 0 » ايجابي .

وسألت الطبيب عن معنى ذلك فقال لي : معناه أن دمك صالح للنقل إلى جميع الناس ، ويمكنك أن تمنحي دمك إلى كل أصحاب الفئات الأخرى ، ولكن ، في حال حاجتك إلى الدم ، لا يقبل جسدك غير دم من فئتك . بعبارة أخرى ، أنت قادرة على العطاء أكثر من قدرتك على الأخذ . تعطين الجميع وتأخذين من فئتك وحدها . تلك مأساتك ! ..

قلت له : لا ، بل تلك حكايتي . ويوم أفقد قدرتي على العطاء ، أموت .

وكثيرون من الذين منحتهم من دمي في لحظات حاجتهم ، منحوني من سهمهم . ولكن تلك حكاية أخرى ! ..

• • •

تمر بك أيام تشعر فيها بأن كل شيء يثقل على صدرك ، الذين يحبونك والذين يكرهونك والذين يعرفونك والذين لا يعرفونك . تشعر بالحاجة إلى أن تكون وحيداً كقيمة . أن تعيد النظر في أشياء كثيرة . أن تعود إلى ذاتك مشتاقاً لتنبشها وتواجهها بعد طول هجر . أن تفجر كل القنابل الموقوتة التي تسكنك .

في أيام كهذه ، تصير المدينة كابوساً ، تمطر ضجيجاً لزجاً ، ورنين الهاتف يترسك ، وأصوات الجميع ، الجميع ، محاصرك يودها العدواني الرتيب حيث لا شيء مجانياً وكل شيء يعطى له فواتيره . ولا حتى رعشة بلا مقابل ! ..

ماذا سوى الطبيعة تهرب إليها ؟ ..

اليوم هربت إلى قرية « غزير » اللبنانية الرائعة . التصقت بجسد الأرض العظيم . تكومت فوق الحشائش والتراب كما في رحم أمي التي لم أعرفها . (آه الأرض ! منذ دهور لم أدفن وجهي في التراب . لماذا لا نعود إلى التراب إلا لحظة الدفن ؟) وسمعت صوت الريح وهي تركض عبر السنايل ، وعبر رؤوس أشجار الصنوبر القانية الخضرة مثل سيمفونية مذهشة الصفاء ...

في القاع كان البحر ، وقرميديوت « المعاملتين » ، ثم تتصاعد من الوادي رؤوس الأشجار ، وصوت الريح عبر أمواج الخضرة ، صوت الريح عبر أزهار « شقائق النعمان » والوزال . وبصوت الريح أغسل أذني من الأصوات العالقة بها كالصدا ، كلمات كاذبة واجتماعية ومراية ومتلفة وواعدة ، كلمات وأصوات لأشخاص يحذونني عن أنفسهم وأعبادهم الأدبية والعاطفية وعن الآخرين ، وأكاذيب ، وقصص عمرهم ، وأكاذيب ، وأصوات وأصوات وزعيق فزامل سيارات و « جيرك » و « فليبرز » ... آه تعبت !

بصوت الريح الأزلي أغسل أذني ودماغي ، وبالتراب أفرك قلبي ، وأعود لأتمشى على الطريق القرعية بريثة وهادئة مثل خروف صغير ...

ومرت بي قروية بسيطة لم أرها قط من قبل ، وعلى الأرجح لن أراها أبداً بعد . ابتسمت لي وقالت « بونجور » (أي مرحباً) .

هكذا . كلمة لطيفة مجانية كلها أنس . من يصدق ان ذلك ما يزال يحدث في عالمنا المعاصر ؟ ..

دهشت ... ذهلت ... غاب صوتي ، وحين للمته لأجيبها كان قد غيبتها المنحى ولم تستمعني .

ووقفت أمام الوادي العظيم وصرت أصرخ بملء صوتي : « بونجور » ... « بونجور »

... « بونجور » ! .. والصدى يبعث .

* * *

حين تقرأون هذه الكلمات أكون بعيدة في لندن ، افتقدوني لأنني سأفتقدكم .
بل افتقدوني حتى ولو لم افتقدكم . امنحوني شوقكم مجاناً ... لمسة حنان قبل السفر ...
بلا مقابل ... أعرف أن هذا كثير ! لذا ، أريده ...

* * *

أيها الشقي

افتقدني ! ..

١٩٧٣/١٢/٣١

حكمة من كربلاء

(إلى ابتسام عبد الله وأمير الخلو
لذكرى زيارتنا للشجف وكربلاء)

الكتابات العفوية على الجدران ، في الأزقة الشعبية ، تعبر أحياناً عن واقع الشعب ، كما تفعل الصحف .

ولكن الذي يسحرني حقاً هو الكتابة على السيارات .

وفي بغداد تجد السيارات مثل جرائد حائط متقلبة ... لكل سيارة ملاكها الحارس ، وإمامها المفضل ، وحكمتها الخاصة .

وعلى إحدى السيارات خطفت انتباهي هذه العبارة : « أصدقاء الشدة قليلون — لا تحزن فالله معنا . »

وكانت السيارة صغيرة ومتعبة ، وكان واضحاً أنها فقدت دواليبها أكثر من مرة . وأنها تعثرت في الدرب أكثر من مرة ، ولكنها استطاعت في كل مرة أن تنهض من كبوتها لتتعلم درس الحياة الأول : « أصدقاء الشدة قليلون — لا تحزن ... »

هل تملك إلا أن تحزن ؟ هل بيننا من لا تمثله تلك السيارة العراقية الصغيرة ، التي ركضت أمام عيني ذات صباح ماطر بين بابل وكربلاء وكنت أرقبها كما يرقب إنسان نفسه في المرأة ؟ ..

صورة تلك السيارة ألحّت علي طوال الوقت ليلة رأس السنة من هذا العام ..

كنت ، في ما مضى ، أودع سفينة العام السابق الفارقة بتذكر قول أفلاطون : « لا تشغل فكرك بما ذهب منك ، واحفظ ما تبقى منك » . وكنت دوماً أغضب لهذه

الحكمة ، إذ كيف أحفظ ما تبقى مني إذا كان ما ذهب مني هو القلب أو الشهية إلى الحياة مثلاً ؟ ! . فحين يفقد الإنسان شيئاً هاماً جيوياً ، لا يملك إلا استعادته لأجل أن يحفظ ما تبقى منه !

وهذا العام ، تبخر أفلاطون من رأسي ، وظلت حكمة ذلك العراقي القروي تلح على صدري « أصدقاء الشدة قليلون – لا تحزن ... »

استحضروا معي أيها الأصدقاء أيام شدتكم (هل بينكم من لم يمر بها) . واحصوا أصدقاء الشدة – إن وجدوا !!! – واحصوا خناجر الأصدقاء المتلهفة للانقضاض على صدوركم لحظة تسقطون ... وأتمنى لكم عاماً بلا سقوط كي لا تكتشفوا كم أنتم وحيدون ... مثلي !

وإذا كان بينكم من هو حائر في أمر الكتابة على سيارته ، فأنا أقترح هذا الشعار : « أنا سعيد ، فيوم سقطت ، لم يطمئنني صديقي » !

من زمان كان المثل يقول : « الصديق وقت الضيق » ، وفي هذا الزمن الرديء يصبح تعديله لبصير « الصديق من كفالك شره وقت الضيق » !

١٩٧٢/٦/١٨

قصة حب

حينما شاهدتها أحسست بما يحس به الانسان حينما يرى حبه الوحيد الحميم بعد فراق أعوام كانت متوقفة الى جانب الشارع ، وكان المطر يغسل عن وجهها الغلاء فيبدو الصبداً وقد بدأ يأكل بعضاً من أطرافها ... كانت بائسة ، مهلهلة ، ومع ذلك استطعت أن أميزها ، كانت تمطر وتكاد تمجج عني رؤية رقمها ... ومع ذلك عرفتني .. انها « الكارمنجيا » البيضاء (الفولسفاكن السبور) التي عايشت جنوبي وضياعي طيلة سبعة أعوام بين ١٩٦٤ يوم لقائي الأول بها حتى أواخر ١٩٧٠ يوم فراقنا ... ولا بد لي من الاعتراف بأنها يوم التقينا للمرة الأولى لم تكن بيضاء . كانت سوداء اللون ، وليس في بيروت سيارة (سبور كارمنجيا) سوداء سواها . لكن رجلاً أجني (على طريقته) ، وأحبته (على طريقي) بدّل لي لونها الى الأبيض يوم تركتها في عهده ذات مرة ، وسافرت . لم يكن الكرم طبعاً مبعث هذه (الخلمة) . لقد قضى عاماً وهو يحاول عبثاً تبديل شخصيتي وفشل ، وها هو يبذل ما استطاع تبديله مني : لون سيارتي ! وافترت عنه ، واحتفظت بالسيارة ، لكنها احتفظت بلونها الأبيض لأنني لم أكن أملك النقود لإعادة طلائها بالأسود . وبقيت أنا كاللؤلؤة السوداء ، ملمعة ، ومختلفة !!

ولا بد لي من الاعتراف بأنني طوال هذه المدة عاملتها كسيارة فقط ، وك مجرد سيارة آلة ، أشترتها يوم أشاء وأبيعها يوم تنعب كما يبيع السادة عبيدهم متى بلغوا الشيخوخة ... واني عام ١٩٧٠ وقعت في غرام مرسيدس حسناء صبية قوية ، وبعث سيارتي القديمة ورفيقة أشقي وأغلى أيام عمري دون أي حس بذنب أو شفقة ... فقد تصادف أن مرضتُ ، وكانت « الكارمنجيا » متوقفة بالصدفة أمام دكان جارنا « الكواء » . وطال مرضي تسعة أشهر (كنت في الحقيقة حاملاً ، ولم يعد لبطني المنتفخ مكان بين المقعد والمقود في سيارتي السبور) ... وظلت السيارة متوقفة ... وجاء ذات يوم أحد عمال البلدية فشاهد أن الأقدار تكاثرت تحتها وحولها وتعلد تنظيف الشارع لعدم تبديل

مكانها، وجاءت الشرطة البلدية وسجلت محضر (ضبط) بسيارتي بتهمة توسيع الشارع (!) ثم اعتادت الشرطة البلدية على سيارتي فصارت تأتي كل أسبوع لتحرر بها ضبط توسيع شارع ، (بعد أمجادنا مع شرطة السير وعشرات الضبوط غير المدفوعة وصلنا إلى محاضر شرطة البلدية !) ، ثم بدأ جارنا « الكواء » يزورنا أسبوعياً ، ليبلغني بالمحاضر المحررة بسيارتي ، وليشكو بلطف من الأقدار المتراكمة تحتها ، بل انه خبرني بأن المطر الذي تسلسل إلى داخلها من الشقوق تسبب في نمو الطحالب بداخلها وأنها صارت مزرعة لزراعة الفطر ، وهكذا قررت ذات يوم أن أحمل بطني وأغادر فراشي لأرى ما يدور في مزرعتي - السيارة ، وفعلاً وجدت نباتات نادرة خرجت من مقاعدها وعريشت على « عجلة قيادتها » و « كابحها » وبدأت تغطي نوافذها ، ثم انها صارت مسكونة من قبل بعض الحيوانات « البر - مائية » التي كانت تسبح في الماء المتجمع في قعرها ثم تقفز بفرح على مقاعدها ... وعدت إلى البيت مكسورة الخاطر ، لأنني عجزت عن حشر بطني داخلها ، لقيادتها إلى أحد (الكاراجات) أو مأوي السيارات - العجزة ، وحينما تطوع « الكواء » بذلك ، اكتشفنا أن بطاريتها أسلمت الروح إلى الليل ، وأن السيارة تحولت إلى نصب تذكاري لأيامي المجنونة المسعورة تقطنه النباتات والحيوانات كأنه هيكل منسي في أحد الأدغال .

وكان لا بد من أن يحدث شيء . وقد حدث ، فقد جاء الكواء وعرض عليّ شراءها كي يتخلص منها ! ... وعرض علي مبلغ ٥٠٠ ليرة ثمناً لها (!) ورفضتُ المبلغ ، وأصررت على أن يدفع لي ٤٥٠ ليرة كي يغفر لي خطاياها ...!

واختفت السيارة ولم أحزن لأجلها لأنني كنت مشغولة بأوجاع الحمل والولادة .. ومرت الأيام وخرج طفلي إلى الحياة ، فتوقف رحمي عن العدل وعاد قلبي وجسدي إلى الحياة ... والتقيت بها صدفة بعد طول غياب ... في مصابيحها المكسورة نظرات عاتبة ، والمطر الذي يقطر منها يشبه دموع الأسمى ...

وتفجر في قلبي الحب العتيق ، والذكريات كلها ، والحكايا كلها ، كل باب فيها يروي لحظة جنون ، ولحظة نشوة ، وكل مقعد فيها أطبق شفتيه على آلاف الأسرار . واقتربت منها ، وفتحت بابها ، أحسست أنها ما تزال سيارتي أنا ، ولتذهب عقود البيع والشراء إلى الجحيم ...

سيارتي أنا ، كما يصرخ العاشق بأن حبيبته هي حبيبته هو ، دون أن يبالي بمن

زوجوها له قسراً ... كانت المفاتيح بداخلها ... ووجدتني أستقلها ، وأمضي بها بعيداً إلى الجبال كما كنت أفعل ، ووجدتني أفتح نافذتها وأمد برأسي منها وأصرخ بملء صوتي في الفضاء الرحب كما كنت أفعل ، ووجدتني أهيئ لها في الدروب بقية الليل ثم أغفو على مقودها عند شاطئ البحر كما كنت أفعل ، ووجدتني مع خيوط الفجر الأولى أعيدها إلى حيث وجدتني أمام دار صاحبها ... وأترك المفاتيح بداخلها كما وجدتني ... وأمضي بعد ذلك اللقاء تتأكلني غصة موجعة ... وتساءلت : ترى هل من عادة (صاحبها) الحديد أن ينسى المفاتيح بداخلها ؟ ... وهل سيلحظ قضاءها الليل معي وخيانتها (الزوجية) له ؟ ...

مع مساء اليوم التالي عدت إليها ...

كانت مغلقة بإحكام ، وقد أوصدت أبوابها كلها من دوني . تراها فعلت ذلك بنفسها ؟ أم أن (مالكها) الحديد يقسرها على ذلك ؟ ... أم أنها تحاول أن تقول لي ببساطة : ان شيئاً لا يتكرر ... (ولا نستطيع أن نشرب من النبع مرتين) ؟ أم ... ؟ أم ؟ ... أم ماذا ؟ ...

في اليوم التالي قررت أن كل شيء نخبه يجب أن يتكرر ، وأن علينا بطريقة ما أن نشرب من النبع مرتين ، وأن نبعث الحياة في حكاية حب كنا نتوهمها ماتت ... وقررت أن أستعيد السيارة بأي ثمن .

ذهبت إليها ، فلم أجدها

سألت أهل الحي جميعاً ، فقالوا أنهم لم يروا طيلة حياتهم سيارة متوقفة في شارعهم كالتي أتحدث عنها ! ..

ذهبت إلى الكواء لأسأله عن اسم الشخص الذي اشتراها منه ، فوجدته قد مات في الليلة السابقة .

سألت أرملته ، فقالت أنها لم تسمع بالسيارة ولا بي .

سألت سكان البناء الذي كانت السيارة متوقفة أمامه ، فأشاحوا بوجوههم غني ، وأقبحوا أنهم لم يسمعو بشيء كهذا ..

لكنني لن (أبأس) ، وأقسم أنني سأشرب من النبع مرتين بطريقة ما !! ...

ماتوا

ما دام من واجبنا أن نتحدث عن فضائل الأموات ،
دعونا نقسو عليهم ما داموا أحياء ! ...

— جون سلون —

إنك لا تمي حقاً معنى الموت إلا حينما تعرف
الحب .

— كاثارين هتواي —

يجب أن نيكبي حين يولد الناس ، لا حين يموتون .

— هونتسكيو —

ما دامت حياتنا في هذا العالم البائس كما هي ،
فإن الموت هو على الأرجح أول مرة نخلوق
فيها طعم الحرية .

— اسحق روزنفلد —

١٩٦٤/٢/١٧

فلنعترف

يوم صدر لى جبور كتابها « فتاة تافهة » تعرضت الفتاة لحملة عنيفة ، وهوجمت بقسوة . الذين لم يهاجموها صمتوا . لم يتقدم أحد للدفاع عنها .

ومرت العاصفة . صعدت لها ابنة الثامنة عشرة ربيعاً وظلت تكتب . وبدأنا نقرأ لها قصصاً قصيرة جيدة ، براعم الموهبة واضحة فيها ، وخمرة تمزق أصيل تبشر بالتمتع بين حروفها .. وكانت قصة « الخلود والحداء الحديد » وغيرها .. أعجب بها عدد كبير من الكتاب ، سمعتمهم يطرونها شفهاً ، لكن أحداً لم يكتب كلمة ، لم يعبر عن رضاه كما سبق له أن عبر عن سخطه . أنا أيضاً لم أكتب ، فقد كنت مثلها أخط السطور الأولى في درب عطائي ، وأواجه قديماً شبيهاً بالذي تواجهه (ها قد بدأت أرشو ضميري وأفتش عن مبررات لصمتي !) .

وماتت منى .

لنى أراها تتأملنا الآن بعينين زجاجيتين يطل منهما حنان ساخر مرفع يشبه الشفقة ، وكبرياء لا مبالاة لا يشوبها العتب ، ونحن نتدافع كالأطفال المذنبين الخجلين لنكتب عنها .. وأكثر من ثلاثين مقالاً عن (الأصالة المهدورة) يبحثون عن مقرها .. كتب أنسى الحاج ووليد اخلاصي ويوسف حوراني وجميل جبر ولور غريب ونور سلمان وسهيل مطر وعبد الكريم أبو النصر وأمين الداعوق .. و .. و .. وأنا أيضاً ا بكنياها بصدق .. وبأنانية .. باخلاص ، وبمرارة ورعب .. كتبنا .. بعد فوات الأوان .. فطفلة اللاشيء قد سبقتنا إلى (هناك) ، وحيدة ، وليس على شفيتها ابتسامة رضى .. لم تمنحها أيام كانت ترتعد برداً جبرة تشجيع واحدة .. لم نشغل في درب طموحها زهرة واحدة .. لكننا اليوم نغمر جثتها بأكرام الورود والأكفان .

ما معنى ما حدث ؟ ..

هل هو افتقارنا إلى الموضوعية في النقد ؟ .. افتقارنا إلى الجرأة في ابداء الرأي ؟
افتقارنا إلى (الرأي) ؟ عجزنا عن تكوين قناعات ندافع عنها ؟ أنانيتنا ؟ تضاول احساسنا
بالمسؤولية تجاه عطاء الآخرين ؟ استهتارنا واطلاقنا الأحكام السطحية السريعة دون أن
نكلف أنفسنا عناء التدقيق ؟ حاجتنا إلى موضوع مأساوي نتخذه قالباً نسكب فيه أحزاننا
الفردية ومخاوفنا الشخصية ؟ تضامننا مع منى ضد العدو المشترك « الموت » ؟ .. أم أن
كل ما يملكه أحدنا للآخر هو كفن واكليل ومروثة ؟ ..

ان نظرة محايدة إلى العالم حولنا تدلنا على أن حادثة منى ليست فريدة . لقد تكررت
أكثر من مرة في أكثر من مكان وزمان .

لقد هاجم النقاد « ملفيل » لما ظهرت رائحته (موبى ديك) واعتبروها فشلاً ذريعاً ،
لكنها بعد موته صارت (بقدرة ناقد) الملحمة الأمريكية الأولى .. وابسن ، الكاتب
المسرحي الحاد ، اضطر إلى مغادرة بلاده هرباً من ثورة مجتمعه على مسرحيته « عدو
الشعب » فاحتضنته أرض غريبة وقدرته .

ما حدث لمنى هو جزء من قدر الأصالة حينما تواجهها الطبيعة البشرية المشتركة بين
الناس جميعاً .. ولعل من بعض التعليل لهذا كله هو أنه (لا كرامة لنبي في أرضه) ..
وعلى (الأنبياء الصغار) أن يحملوا صليب الأصالة وشمساً من جمر ، ويمضون في أسواق
العمر نحو طهم اللامبالاة والاسماء ليقطعوا أطول شوط ممكن ، حتى إذا ما سقطوا ،
ورحلوا إلى (هناك) وطننا الأم ، ولم يعودوا من رعايا عالمنا ، بكيانهم بمرارة وبحرقه ..
وبعد فوات الأوان .

منى . إني خجلة .

٦٩/٩/٥

أسطورة البدو

تقول الأسطورة العربية :

ان قوم لوط ظلوا أعواماً ينظرون إلى الخلف بحسرة وأسى ، يحقدون دونما جدوى في ماضٍ ذهب إلى غير رجعة ، وأيام كانت ولن تعود (وهل لماضٍ أن يعود ؟)
ولذا عاقبتهم الآلهة على حماقتهم تلك . حولتهم إلى أصنام من الملح ملوية الأعناق إلى الورااء ... وحكمت عليهم بأن يظلوا كذلك إلى الأبد ...

...

رغم أن هذه الأسطورة هي ملحمة عمري التي أحتفي بها من التحول إلى تمثال من الملح ملوي العنق إلى الورااء ، لا أملك اليوم إلا أن أروي لكم حكاية من الماضي الذي أحرص دائماً على ردم مداخل كهوفه .

وعنري في صفحة الماضي تلك ، التي سأشرها أمام أعينكم ، هو احسامي المرير بأن رائحة الحقيقة المعاشة ، ما تزال تنبعث منها أكثر مما تنبعث من حبر دواتي ... وأن تلك الحكاية رغم رحيلها عبر منحنى الأيام ما تزال ألصق إلي من رثي ! .. وأكثر واقعية وحتمية من تنفسي !

...

لندن . يوم ما . شهر آب ١٩٩٧

عام من الركض تحت المطر في لندن ، في شوارع مفروشة بالثلج والعتمة والغربة ، والشمس لا تطلع إلا عبر رسائل أصدقائي إلي ...
رسائلها هي بالذات .

سميرة عزام . الأدبية الكبيرة ، التي وقفت إلى جانبي يوم وقف عالمي كله تقريباً

صدي ، وشجعتني منذ وصولي إلى بيروت من دمشق ، قولاً وكتابة وكانت نِعَمَ الأدبية المشهورة التي تساعد من تؤمن بموهبتهم .

ذلك اليوم كنت أتوقع أن تصلني رسالة منها ... وحدها لم تكن تخيبي . كانت دقيقة في مواعيد رسائلها دقة البريد البريطاني . لكنني لم أجد شيئاً ذلك الصباح ، منها أو من سواها !!

داهمني في ذلك الفجر الرمادي غم قاتل . أحسست أنني سأصاب بالجنون إذا بقيت وحيدة في غرفتي ، وإذا لم أهرب إلى الشارع ، أركض أو أصرخ ، أو أستقل أول طائرة إلى بيروت . وفصلت الركض .. وهربت من غرفتي إلى الشارع ، مسعورة .

كانت الساعة ما تزال السادسة صباحاً ، ولدي موعد لتسجيل حديث أدبي في « B.B.C. » في العاشرة .. اذن أمامي أربع ساعات من الضياع .

لم يكن قد انقضى على الخامس من حزيران أكثر من شهر ، وكانت رسائل سيرة تونيني ، وتعتني بالجين لربي إلى لندن بدلاً من البقاء في الوطن المهزوم ، والعمل لمحو العار .. ربما لذلك خشيت أن تكون قد كفت عن الكتابة الي ، وحكمت على صداقتنا بالاعدام (وكانت صداقتي بها أعمت وأغلى علاقة انسانية ربطتني برفيقة حتى ذلك التاريخ) كان صمتها إدانة . احتقاراً . اتهاماً . رصاصة مطلقه من بيروت إلى صدري في لندن !

قبل العاشرة بدقائق بلغت دار الاذاعة وأنا ألث مثل كلب صيد . اتجهت مباشرة نحو الاستوديو « A 24 » حيث التسجيل . على باب الاستوديو التقيت صدفة بالفلسطينيين الأستاذين حسن الكرمي وسعيد العيسى وكان في عيني كل منهما جنازة . سألت : ماذا بكما ؟ رد الأستاذ سعيد العيسى بصوت داعم : لا . لا شيء يهلك بالذات . تلقينا لتو من بيروت نبأ وفاة سيرة عزام . هل تعرفينها !

(أعرفها ؟ يا إلهي ! يتعون إلي موت بعضي ، ويسألوني فيما إذا كنت أعرفها ؟ أعرفها ؟ يا شيطاني ! لها وحدها عريت وجهي وعالمي . احترمتها كفلسطينية ، عشقتها كأديبة ومفكرة . قدستها كصديقة . ماتت !! لن أصدق . لن . لن ؟) .

كالمسعورة انطلقت أركض أركض أركض .

كل ما أذكره أنني غسلت كل شيء بتخدير ما . اختلطت الأشياء

هبطت من التاكسي أمام باب بيتي مع فجر اليوم التالي . ولاحظت أن في صندوق البريد رسالة وكانت المفاجأة المروعة !! أنها رسالة منها . من سميرة عزام . إنه خطها المنمنم الذي أعرفه جيداً . لم أصدق . قلبت الرسالة وقرأت : الرسالة : سميرة عزام . ص . ب : ٤٠٩٢ - بيروت !! اذن بعثت بسطورها إلي قبل وفاتها ، ورحلت حنجرتها ولم يبق إلا صرختها في مظروف ! ولم أجرؤ على فتح الرسالة . قضيت ساعات أتأملها دون أن أجرؤ !! كان هنالك شيء مروع .

لا أدري بالضبط ماهيته ! ربما وعيت بطريقة في غاية السذاجة والواقعية معنى كلمة : مسوت ! ..

ماتت ، أي صارت نهائياً مجهولة العنوان ! .. أن أقرأ رسالتها يعني أن ألتقي بها بعد وفاتها ، ولكن ، لمرة واحدة وأخيرة تموت بعدها ثانية ! ! ..

...

بيروت . يوم ما .. آب ١٩٦٨

أمام مائدة رخامية كالمشرحة وقفت تمثالاً من الملح . المفروض أن سميرة داخل هذا القبر ، لأن أمها ، السيدة الجليلة المكفنة بالسواد ، كانت تنتجب مع شقيقته غاليتي سهام .

كلتاها عاجزة عن اللقاء بسميرة ولو لمرة واحدة أخيرة . كل الناس عاجزون عن ذلك ، إلا أنا ! ! ..

فأنا أملك الرسالة التعويذة ولم أقرأها بعد . الرسالة .. رسالة لها مفعول استحضار الأرواح .. اذ أستطيع استحضار سميرة من عالم الموت للدقائق فقط تنتهي مع انتهائي من قراءة آخر سطر في الرسالة التعويذة ، وبعدها ستمضي ثانية إلى الأبد ، دون أن أقوى حتى على الرد أو ابصال صوتي إليها .. أن أستحضرها يعني أن أدفع الثمن غالباً لأنها ستموت ثانية .. تذكرت أكثر من أسطورة مروعة عن بشر فجعوا بموت من أحبوا وتمردوا على فكرة الموت من حيث هي فراق نهائي عن أحبائهم ، وتوسلوا إلى الآلهة كي تبذل قانون الموت ، وتسمح لهم ولو بلقاء واحد مع الراحلين ..

تذكرت مأساة أورفيوس الاغريقية ، ذلك الذي كان يطرب لغنااته الحजर والريح

والغابات والوحوش وحتى الآلهة .. والذي بكى موت حبيبته حتى رقت له الآلهة ،
وسمحت له باستعادتها وكان أن ماتت مرتين . وتذكرت الأسطورة الأوروبية .

تقول الأسطورة :

أم ثكلي فقدت أولادها الثلاثة . كان حزنها فوق طاقة البشر على الاحتمال ، وفوق
طاقة الآلهة على اللامبالاة .

لذا ، أباح لها إله الموت لقاءهم لمرة واحدة فقط طيلة عمرها ، تختار توقيتها
بنفسها . يكفي أن تحرق جلد القرد القديم الذي يضمه بيتها العتيق حتى يحضروا . وذات
ليلة غلبها شوقها فأحرقت التمويذة وحضر أبناؤها ، وغلبها ضعفها الانساني فانتحبت
وسألتهن عن أحوالهم ، وأبن يعيشون ، وما هو عنوانهم ، وبكت وانتحبت ، وشيئاً
فشيئاً ، اختفوا ، مضوا بلا عودة . ماتوا أمام عينيها مرتين . مرتين !

لذا تجلّدت . كتبت سر الرسالة . ضمنت أسرة سميرة إلى صدري ، وغادرنا
المقبرة ، مثل أغصان شجرة (شلمتها) العاصفة !

...

بيروت - ٨ آب ١٩٦٩

أفقد سميرة كما لم أفعل قط . أريد أن ألتقيها الآن .

الأسطورة الاغريقية لا تحمل أي عزاء . الأسطورة الأوروبية كذلك والعربية أيضاً .
أذكرها ، فلا أجرؤ على فض الرسالة واستحضار سميرة دقائق ، ثم أدفع ثمناً (فاوستياً)
للقاء أخير وحيد عابر تموت بعده سميرة مرة ثانية ..

في فورة جنون ركبتي سيارتي وانطلقت أبحث عنها في الشوارع ، في الشواطئ ،
في الجبال ، كنت أصرخ باسمها فأسمع صوتي مثل مواء قطعة دهستها للتو عجالات قدر
مجهول ..

وقررت ..

سأقرأ الرسالة وليكن ما يكون . وبدأت أهبط من مرتفعات صنين إلى بيروت ،
وقررت أن أرتب غرفتي وأعد لسميرة السجائر التي كانت تحب ، وكأساً من مشروبها
المفضل ، وأجلس في المقعد المواجه لمقعدها الفارغ وأقرأ الرسالة .

بسرعة مجنونة كنت أركض إلى اللقاء المروع المسحور . أخيراً وصلت إلى بيروت .. في شارع المعرض حيث يتكلم على الرصيف العمال الفلسطينيون والسوريون الباحثون عن عمل . لمحت رجلاً بدوي الوجه غارقاً في النوم على الرصيف بانتظار طلوع (الضوء) وحضور السامسة ولقمة العيش .

ذكرني وجهه بأسطورة بدوية عن الموت .. تقول الأسطورة (التي ربما حولها أكثر من أديب إلى قصة) : عاد بدوي إلى خيمته فوجد زوجته تنذب ابنهما الوحيد . كادت تحن لمصرعه . تريد أن يعود بأي ثمن . قال لها زوجها بهدوء متجلد : الأمر بسيط . اطبخي له أكلته المفضلة وعندما ينتصف البدر ، يعود ويتناول عشاءه معنا ولا يرحل أبداً !! ..

قالت : أمذا كل شيء ؟ علينا فقط انتظار استدارة البدر ؟ رد زوجها حكيم العشرة : أجل ! هنالك شرط واحد بسيط ، يجب أن تطبخي له الطعام في قِدر ذات مواصفات معينة .

— ماذا ؟ قِدر من ذهب ؟

— لا . أية قِدر صدئة ، على أن تحضرها من بيت لم يعرف أهله موت أحد أفراد أسرته ، ولم يسبق أن طبخ فيها لمأتم .

وذهبت البدوية ، وطافت بخيام المضرب خيمة خيمة ، ولم تجد خيمة أو داراً إلا وقد فقدت عزيزاً ، وطبخ في قدورها لأكثر من مأتم .. وظلت أياماً تدور من خيمة إلى أخرى ، وكل يروي لها مأساته ، وانتصف البدر ولم تجد قِدرأ واحدة لم يطبخ فيها لمأتم أو بيتاً لم يفجع بعزيز ..

وفهمت البدوية .

وفهمت أنا . استطاعت الأسطورة البدوية أن تقول لي أكثر مما قالته الأسطورتان الأوروبيتان .. اقتنعت . وأحرقت رسالة سميرة دون أن أقرأها ! .. فأنا لن أحتمل أن تموت مرتين .

ولن أهدر وقتي في قرع بيوت بيروت في ذلك الفجر الحزين بيتاً بيتاً بحثاً عن قِدر الخلود ، الذي لم يطبخ فيها قط لمأتم ، والجدران التي لم تسمع مرة ندبة تكلى .

تباركت حكمة البدو .. وإلى لقاء قريب جداً وطويل جداً يا سميرة ؟؟ هل تبقى لقاء ؟؟ ..

٦٦/٢/١٤

موت القمر

ترقص أسلاك البرق . ترقص حروف المطابع : القمر لم يعد قمراً . انه كالأرض ، مجرد أرض . أرض . طين . غبار . معادن . مستنقعات . وحل . وحل . وتزغرد الآلات الحاسبة .

ترقص تجاعيد وجوه رجال السياسة : القمر قاعدة عسكرية استراتيجية جديدة . يلحق رجال الأعمال شفاهم بعد ابتلاع أقراصهم المهدئة : القمر منجم جديد . فحم . معادن . ذهب . ذهب .

يمسح مدراء شركات السياحة نظاراتهم : القمر ... سياحة واصطياف ... رحلات منتظمة ..

يتعاقب علماء السكان : أرض جديدة ... يسقط تحديد النسل ... وليمت (مالتوس) كدأ وقهراً ..

يركض المسؤول عن ضياع قبيلة أميركا الذرية في حقول البندورة في أسبانيا صارخاً : وجدتها وجدتها .. سنجري تجاربنا الذرية هناك ..

تربت سيدات الجمعيات النسائية على شعورهن المصبوغة بارتياح كبير ، فقد انتهن من غوث أيتام وجياع الأرض ، وها هو حقل جديد ، والبركة في أيتام القمر ..

ويحك هتشكوك صلته : فيلم رعب جديد هناك .. وتزين دار بيير كاردان احتفالاً : عرض أزياء .. في القمر ..

وتحزم الراقصات رياشهن ، وتُغلق الأكفاس على حيوانات السيرك وتُلملم الأقنعة ، ويشهد القراصنة والجياع سكاكينهم ، ويمسح رجال الدين والمبشرون كتبهم

ومنطقهم ، واللاجئون السياسيون أمجادهم ، ويهرولون في موكب هستيري إلى الفريسة هناك : القمر ...

صوت ضعيف في هذه الجوقة الكبيرة المصفقة ، أبرق محتجا .. انهم الشعراء ، أحفاد عمر الخيام ... أبرقوا احتجاجاً على اغتيال فارسهم الأبيض العتيق .. القمر .. وضحكت منهم صحف الغرب ، وضحك من جزعهم المنطق الغربي العصري .. فهو لا يستطيع أن يفهم حكايتنا مع القمر طيلة أجيال ...

أما نحن فنستطيع أن نفهم لأن لنا معه حكاية طويلة ... فقد قتل فارسنا الأبيض العتيق ... سقط نهائياً من ملكوته الأميري حيث ظل طيلة أجيال ، رمزاً لعوالم عاطفية ميتافيزيكية شرقية ثرية ..

من منا لم يكن القمر ذات يوم جزءاً كبيراً من روحانياته واثريته ورغباته الحميمة وتراثه الثقافي العتيق ، وحكايا طقولاته ، ووتر شعره المفضل ؟ ..

ان مصرع القمر في هذا القرن دراما صغيرة سرية ، وتحمل أهم خصائص المساة الحديثة : تصفيقنا لها ! ..

انتهى ، الفارس الأبيض العتيق .

برقية احتجاج لا تجدي .. الأمل الوحيد الذي تبقى هو أن لا نتبدل ، وأن لا نخون رموزنا ولو خائننا ..

ذات ليلة ، لو رحلتُ إلى القمر ، وبقدمي دست الوهم الفضي الذي صار طيناً ووحلاً ، فسوف أبحث عن عريشة ياسمين كذلك التي كانت في بيتي في دمشق ، وسوف أستسلم الليل في أعماقي ، وسوف أتأمل الكوكب الآخر « الأرض » مضيئاً نائياً فضياً ، وسوف أشير إليه وأهمس بالحماس نفسه : ما أحلى هذا القمر الآخر ! ..

١٩٦٨/٥/٣

لن نصدق أنك لن تعودى !

قالوا : رجا * رحلت .
كيف ؟؟ ...
فجأة ، كما تحترق الشهب .
بسرعة ، كما يلتصق البرق
بهلواء ، كما ينام الأطفال .
بسلام ، كما يستسلم قديس للصلب .

• • •

رحلت ؟ ...
لن أصدق .
هنالك مدينة انغrust بسرعة ووحشية في أحشائي ، نصلها بارد ومسنن كالمنشار .
قررت :
لن أصدق ، فأنا امرأة عاجزة عن البكاء .

• • •

رحلت ؟ ...
إلى أين ترحل الصبية ؟ ...
بالأمس كنا معاً ... ضحكنا معاً في باحات الجامعة الأميركية ، وتفصدنا عرقاً
أمام أوراق الامتحانات ، وصفقنا ساعة خرجت رجا تحمل شهادتها الأولى وتقول
بعناد محجب : سأتابع دراستي ...

• المرحومة رجا حجار ، رفيقتي بالجامعة .

بالأمس كنا معا ...

رجا الأستاذة الطالبة ...

رجا ، ابنة الشوف * رافقتني إلى الشوف لأراه .. وأعرفه .. وأكتب عنه ...

وفية لأرضها ، كان حزن زيتون أرضها ، يتجمع في عينيها ...

وفية لقومها ، كانت فجيعتها بتخلف البعض تثقل على صدرها ...

وفية لينابيع جبلها المهدورة ، كان عزمها على العمل ذيفاً من الغضب، تنفجر نيرانه
في شرايينها .. رجا لم تعرف أسواق التفاهة والغرور والرياء الاجتماعي .. بعيداً عن
ذلك كله عاشت ، وبعيداً عن ذلك كله رحلت ..

* * *

مرعب اختفاؤك رجا ... أن تموتي عبارة نرفض - نحن الذين أحبينك - أن
نفهمها ...

ولذا بحثت عنك والرفيقات في كل مكان ... وهفتنا لك إلى الرقم المعتاد وسألنا
عنك باصرار ! .. وحينما رد صوت ملثاع مفجوع : من ؟ ... أدركنا أنك ولا بد
رحلت حقاً ..

قولي شيئاً ...

لا نستطيع أن نصدق أنك لن تعودي ...

* * *

أحصنة معصوبة العينين نركض في سباق أرعن ... نركض ... لا ندرى من نظم
السباق ...

لا نذكر من أين انطلقنا ... ولا نتساءل ... ولا ندرى إلى أين ...

ثم فجأة ... يتساقط الذين أحببتهم ورافقناهم في أكثر من شوط ... يختفون
ينسحبون من السباق الغبي ..

نذهل .. نصدق .. نرفض أن نصدق .

* الشوف : منطقة في جبل لبنان .

تنمو تحت جلدها آلاف الأسئلة المنسية حقولاً من شوك .. لماذا ؟ .. إلى أين ؟ ..
وماذا بعد ؟ ..

لذا لما انسحبت يا رجا ،
لما اختفت ،
كان لا مفر من أن أقف ...
أصرخ بملء فمي بصوت أخرس ؛
لا .
لن نتابع سباق الغباء ... فريد جواباً .
أين رجا ؟ أحقاً لن تعود ؟ ...

• • •

نموت ،
نموت مرة ، كلما أبحر بعيداً وجهه أحبيناه ... بلا عودة ...
نموت مرة ،
كلما وعينا ضعفنا البشري أمام ارتحال سيكون ذات يوم ارتحالنا ..
نموت مرة ،
كلما شاهدنا حقيقة وجودنا داخل مرآة غياب إنسان كان من بعضنا ...
نموت أكثر من مرة ، بأكثر من أسلوب خلال رحلة السباق الغبي تلك ...
الذين يسبقوننا إلى الرحيل ، تراهم يشفقون علينا ؟ يرثون لحالنا ؟ لاهتمامنا
بتضاهات عصرنا الزائل ؟ لانكبابنا على أيامنا كما لو أنها لنا ؟ ..
رغم وعينا لذلك كله ..
لا نملك إلا أن نتزف حروفاً .. وترتجي كلمات العزاء في قلب الغابة السوداء
الغامضة ، مطروحة على التراب ، والريح تسكت ، وحتى النهر يكف عن التدفق ..
لا نملك إلا أن نموء حزناً ، كما تنوح أجيال من العرافات والمردة أمام قدر مبهم
عبثاً يقاوم ..

لا نملك إلا أن نسقط اعياء ، نتصدد ذلاً ، كيف لماذا وأين اختفت الصبية العذبة ..
وكيف ماتت قبل أن تعيش ؟ ..

• • •

رجا ،

قولي شيئاً بطريقة ما ...

إلى أين يرحل الذين أحببناهم ؟ ولماذا ؟ ..

وماذا بعد ؟ ...

رجا ،

خبرينا ،

إلى أين تسقط الشمس حينما تتجاوز أفقنا المنظور ؟ ..

قولي : أين أنت ؟

١٩٦٦/١/١٠

احتجاج على الموت*

أي احتجاج مرير تحمله الأسطورة ...

في أحد البلدان ، حينما يموت رجل ما ، يدفنون زوجته معه .. وفي احتفال جماعي مهيب ؟ ..

لماذا ؟ ..

للمرة الأولى تقفز كلمة « وحشية » كجواب عفوي .. ولكن ، هنالك شيء أعمق من الوحشية في هذا الدفن العلني الكبير ..

هنالك احتجاج على الموت بالذات ..

احتجاج اتخذ صورة الرفض : رفض التصديق !

إنها محاولة لرفض تصديق ، ان هذا الرجل لما مات ، انتهى .

هكذا بكل بساطة ، وبلا مبرر ، ودون أن يُستشار ! ..

قبل أيام كان مثلهم جميعاً ، زوجاً ورجل أعمال ، ثم .. لا شيء .

لأنهم يرفضون تصديق فكرة الموت كنهاية ، كعدم ، لأن في ذلك ، ما يزلزل أركان حياتهم كلها ، ويقودهم بالتالي إلى التساؤل : إذن لماذا نعمل ، ونخطط ، ونتشاجر ، ونركض خلف الشعارات ، إذا كان كل شيء سوف يتوقف ذات يوم فجأة دون أي تبليغ ، أو تبرير ..

وأية عدالة نستطيع أن نوجد في عالمنا ، عن طريق تشريعاتنا ، وحروبنا ، إذا كانت

* كتبت إثر موت صديق صحافي .

« الاعدالة » و « العبث » ، هما أساس وجودنا منذ البداية حتى النهاية ..

منذ البداية ، منذ لحظة الولادة ، لا نختار موعدها .. لا أحد يستطيع أن يختار العصر الذي يريد أن يعيش فيه . وأوصاف أسرته ، ولا دينه ، ولا جنسيته .. إننا نولد ، ونكتشفها فيما بعد كقدر ، وكجزء من مسلماتنا التي تتبناها الأكثرية دون أن تكلف نفسها عناء إعادة النظر .

وننتقل في السباق الكبير ، وكلما سقط انسان ، رأينا في سقوطه سقوطنا المحتوم ، وأدركنا أية « لا عدالة » تخطط ، حينما تهوي الشهب بلا مبرر ، ولا تخيير ..

هذا هو السؤال الكبير الذي لا يجرأون على مواجهته .. إنهم مع ذلك يريدون الاحتجاج ، وبطريقة بدائية جداً .. لذا فإنها تتخذ صورة عمل وحشي ، ما هو في صلبه إلا محاولة تسر جماعية ، على الضوء الكاشف المرعب ، الذي يلقيه موت إنسان ما ، على حياة الذين لم يموتوا بعد ، موضحاً لهم حقيقة وجودهم وماهيتهم وتفاوتهم ..

وصورة أخرى من صور رفض البشر لفكرة الموت مارسها الفراعنة ..

احتجاج بدائي آخر ، اتخذ من « التمويه » تعبيراً عملياً له ، ومن الدين قناعاً ..

فقد كانوا يدفنون الميت ، في بيت ذي طابع جديد (الأهرام) ، ومعه كل حاجاته الحياتية من ثياب وأغذية وأثاث .. وهم لا يفعلون ذلك من أجل راحته وسلامه كما يظنون ، وإنما من أجل راحتهم هم وسلامهم . وما ذاك ، إلا محاولة منهم لإقناع أنفسهم بأنه لم يموت ، وإنما انتقل ليمارس حياته بصورة جديدة .. وبالتالي فالحياة ليست تافهة ، والموت ليس هناك بالمرصاد ، والعالم لا تحكمه آفة ظلمة أو لا مبالية كما وصفها شكسبير فيما بعد : « اننا لا نعي للآفة ، إلا ما يعنيه البعوض للأطفال العابثين :

في قتلنا رياضتهم المفضلة ! » ..

هذا كله تفجر على صفحة عيني حزمة من الألعاب النارية حينما علمت بأنه مات ! مات ! ..

لم يعد هناك لبرد على هاتفه ، أو يتلقى التهاني بانتصاره الأخير ! .. أو يقول لي : مرحباً !

إذن سقط جواد أصيل جديد في السباق العتيق .. المعركة ..

كم سيحسها الآن كل من اشترك بها تافهة ، مجرد لعبة من جملة اللعب والسباقات التي يلهمهم القدر بها عن الحقيقة المرعبة : ان يبدأ غامضة حملتهم كالدمى ذات يوم ، وفرضت عليهم مسرحهم ودورهم ، ولم يكادوا يكتشفون معادلة عمرهم المفروضة عليهم في تذكرة الهوية (الاسم ، العمر ، الدين ، الجنسية) ولم يكادوا يتحركون وفقاً لها ، حتى تمتد اليد الغامضة ثانية لتلتقطهم عن المسرح ، وتمضي بهم إلى حيث لا يدرون ، بلا مبرر .. بلا إنذار ..

أي عبث هي الحياة ، أية تهاة .

وأي انتصار ، أن نعرف هذا كله ، ونتحدى ، ونتابع اللعبة ! ..

أي انتصار ..

أن نعمل ، رغم أننا نعرف سلفاً أننا مهزومون في جبهة الموت المجهولة ، التي لم يعد منها أحد ، ليخبرنا عما يدور هناك .

وحتى سيزيف الأسطورة ، الذي أصر على أن يعرف ، حل عليه العقاب لأنه تمرد .

إذن مات ..

وكما تنهيج الشهب الساقطة في إضاءتها الأخيرة ، نرى في توهجه الأخير حقيقة ومعنى وجودنا ..

وندرك أية مأساة يفجرها موت أخ كفاح في هذا العصر .. فنحن اليوم لا نملك إلا أن ندرك معنى ذلك ..

لقد فقدنا القدرة على التحويه النفسي ، وفقدنا القدرة على « رفض التصديق » البدائي ، وفقدنا القدرة على تعظيم أنفسنا انطلاقاً من انتصاراتنا العلمية ، فكل صاروخ نطلقه إلى الفضاء ، ليس دليلاً على عظمتنا ، بقدر ما هو دليل على صغرنا وتهاة شأننا في هذا الوجود الكبير والكون الكبير المرعب باتساعه وضخامته ... والذي يكشف لنا العلم مدى ضآلتنا فيه .

البشري سعيد ، إنه يعتقد أن الجبل إلى يمينه هو أول الدنيا ، والجبل الآخر إلى يساره هو آخرها ، وما فوقه من نجوم وكواكب هم أربابه ، وقوى الطبيعة بعضها شرير وبعضها خير ، وفقاً لانتفاعه منها .. وهذا كل شيء ..

وإنسان العصر مفجوع معتقد ، حضارته المادية تكشف له مدى بؤسه الروحي ، بعد أن فقد الإيمان ولم يجد البديل ..

إذن مات !

أي عار ،

أن يجد أحدنا القدرة على التخدير أو التميؤ ، هارباً بذلك من مواجهة الحقيقة التي يحملها موته : تنافه الحياة ..

وأي انتصار ..

أن ندرك هذا كله ، ونتحدى رغم ذلك ، ونتابع اللعبة محافلين على قيمنا ، لأنها تنبع من داخلنا نحن ، لا من قوى خارجية عنا فقدنا إيماننا بوجودها ..

وأية فجعة ..

أن يكون الأمر كله هكذا !! .. ولا شيء ..

نموت ، احدى ميئاتنا

الانسان المحتضر يكون على الأرجح قد فقد من
ذاته خلال حياته ، أكثر مما هو مقدم على
فقدانه بالموت ! ...

— نيتشه —

الموت يهمس باستمرار في أذني : عيش ، فأنا
في طريقي إليك .

— سير أوليفر هولمز —

حينما نتصالح مع الموت ، وتتقبل فكرة موتك
الشخصي ، تصبح حراً لتتحيا . تكف عن المبالاة
بسمعتك ، وما يقوله الناس عنك ، ولا تبالي
بغير الحياة من أجل يقين تؤمن به .

— سول النسكي —

قلوبنا الخائفة ما هي إلا طبول تفرع أنشودة
الموت ونحن في طريقنا إلى قبورنا .

— هنري وادسورث لونفيلو —

١٩٦٤/١٢/٧

بعد أن احترق حفل الزيتون !

ربما لأن الليلة مطر . تمطر في عظامي ، تمطر بين جلدي ولحمي ، تمطر في حلقي ..
ربما لأن الباخرة العالقة بين الصخور منذ أسابيع ، تفرق الآن وحيدة .. ربما لأنني
لما شاهدت صباحاً واجهة غزن الألعاب ، وقد عُرِضَتْ فيها عشرات الأقنعة الملونة ،
أحسست بالخوف وأنا أحاول أن أتذكر أين رأيته ، وكيف .. ثم تذكرت كيف ،
وأين ، وأنا أتأمل الوجوه حولي في الصف بالجلمعة والمقهى والشارع طيلة بقية النهار ..
وفي المساء ، أحسست بأقنعة واجهة غزن الألعاب تهاجمني ، تتدفق من بطاقة دعوة
لإحدى الحفلات ... إذن يقيمون حفلة .. ورأيت الأقنعة تهقه ، تصرخ ، تشرب
الويسكي ، تثرثر ، تتغامز ، تنفث دخان السجائر في وجهي من حروف البطاقة ، ثم
تتهامس وتلتصق وتلتصق حتى تصبح قناعاً واحداً كبيراً لا يعرف الختان . ولم أذهب إلى
الحفل ، لكنني ذهبت إلى واجهة غزن الأقنعة ، في الأضواء الشاحبة ، كانت تبدو
رصينة وصامتة ، وخلف عيونها المفقوعة تلتهم أحداق فيها ما يشبه الختان .

* * *

ربما لأنني لما أرعدتْ ، أدركت كم أنا وحيدة .. تحولت إلى يد صغيرة باردة
على منضدة في مقهى مقفر ، والكرسي الثاني فيها مقفر .. ولما انزلت قلدي في المطر لم
أمدّ يدي لأستند إلى جدار أحد الأبنية ، فقد لاحظت أن الأبنية كلها رسوم زيتية على
ستارة قماش ، (يكشفها) اهتزازها في الريح ووهج البرق . والشوارع ظلال في برك
الوحل ، ممزقة ومبتلة ، وغير حقيقية ..

ربما لأنها كانت ما تزال تمطر .

تمطر في عظامي ، تمطر بين جلدي ولحمي ، تمطر في حلقي وأنا أقرأ هذه الكلمات
لشكسبير : « الآفة تقتلنا بينما هي تمارس رياضتها » .. وتتوتر عشرات حكايا الاغتيل ،

تنقر كالمثقب ، أتمحس نبضي . تنقر كالمثقب .. وأشم رائحة العفونة تنفوح من أوراني ،
وأخشى أن أنظر في المرأة كي لا أرى الدود الذي بدأ يأكلني ..

فأنا ميتة ما دمت وحيدة وهي ترعد ..

• • •

ربما ...

ربما لهذا كله ، أجدني أنسل هاربة من صفحتي المعتادة ، لأركض في شوارع
المجلة بحثاً عن سفارتها الحرة* ، لأحتلها ، لأرمي بمصنفاتي من (سطوحها) إلى الأرض ،
ولأكسر هدوء القضاة في كلماتي ، وأرفع صرة (ربما زوادة سمر) على مظلة مزقة
راية لأرضي ، ثم أغلق النوافذ ، ثم أرسم على أحد الجدران نافذة ، أقف أمامها وأغلق
فمي ، وأصرخ .. وأصرخ .. أو أقهقه .. أو أن .. أو ألصق وجهي بالجدار ولا أقول ..
ثم أفرغ الحبر من قلبي تماماً ، وأنظف ريشته تماماً ، ثم أبحث عن ورق ، لافرق ان كان
قد كُتِبَ عليه من قبل لم لا ، وبالقلم الفارغ من أي حبر أكتب وأكتب ، وأبحث عن
أسطوانة أضع الإبرة على الخط الأخير فيها . فلا أسمع سوى (تكة) النهاية ، وأتركها
هناك ، رتيبة مستمرة تشبه صوت إبرة وحشية تثقب رأساً ما .. فالباخرة الآن بين
الصخور تفرق في الظلام ، وصاريها ما زال مرفوعاً .. جاءت إلى بيروت وكانت ما تزال
قادرة على أن تحلم ، طويلاً حلمت بالمدن العجيبة المدفونة منذ عصور في الأعماق ،
بالميناء حيث تشفّ المياه كزجاج مصهور . ويصبح الرحيل نفوذاً مستمراً إلى داخل
الأشياء وصلبها .

• • •

ثلاثة أسابيع ، لا عمل لأهل بيروت إلا الوقوف على شاطئ البحر ، ومراقبة
السفينة المحطمة بين الصخور ، تفرق وتفرق ، دون أن يملك لها أحد شيئاً ..

ثلاثة أسابيع ، واحتضار الباخرة تسليتهم المفضلة ، يرقبونها بلذة أهل روما القدماء
أمام مشهد التهام الوحوش لأبرياء رموا بهم إليها ..

• « السفارة الحرة » صفحة بالمجلة التي كنت أعمل فيها يومئذ وتتضمن « المخاطر الحرة » للمحررين .

الليلة ، ربما تموت الليلة بعيداً عن الأعين ، ربما هي الآن تنزف ومياه البحر حولها حمراء دامية .. وبعد أن تغرق ، ربما سيظل جزء ولو صغير جداً من صاريها فوق الماء ، وغير منكس .

• • •

إذن فهي تمطر ..

لكن حقل الزيتون الذي جف قد جف ..

لم يبق إلا جذوع عارية كأصابع كف محروقة تشير إلى أصقاع مجهولة ..

إذن فهي تمطر ! .. أية سخرية ما دام الحقل قد انتهى ! .

ماذا لو أمطرت حناناً أو دفئاً أو صقيعاً أو سجيلاً ما دام الزيتون قد احترق وفات الألوان ..

لا أدري ماذا أقول .. ربما لأن الليلة مطر .. تمطر في عظامي ، تمطر بين جلدي ولحمي ، تمطر في حلقي .. ربما لأن الباخرة تغرق ... ربما لأن حقل الزيتون قد احترق ..

• • •

لندن ١٩٦٦/٦/٦

في الزحام .. لا أحد

أنا الليلة لا أملك « كلمة بيضاء » * واحدة ...
 في حلقي ملايين الصرخات الرمادية .
 على لساني حقل أشواك رمادية .
 على صفحة عيني ، يتزلق شريط أحداث طويل غائم خلف أمطار رمادية ..
 وحينما يتزلق ذلك الشريط ، يصبح الدم الذي يجري في عروقي رمادياً ، والهواء
 بعد أن أنفثه من رئتي دخان ثقيل ...
 لذا فالخبر في محبرتي الليلة رمادي : بقايا نيران : كانت قبل أن تستحيل هشيماً ،
 أنشودة شرر وعنفوان التهاب .
 « كلماتي البيضاء » * ككل شيء أبيض ، ليست مجرد لون واحد كالأخضر أو
 الأصفر أو الرمادي ، لأن الأبيض حصيلة انصهار الألوان كلها ... وكلماتي تلك ،
 حصيلة استجابتي وانفتاحي على كل ما حولي ومن حولي ...
 أما الليلة ، فأنا وحيدة مع ذاتي ، وكلماتي ستكون رمادية ... لا أحد يعنيه أمرها
 إلا إذا كان طبيعياً نفسياً ، أو مروج شائعات أو دفتر مذكرات .. أو وحيداً مثلي ..
 أنا في لحظة صدق ... فأنا أكره الأقنعة : أمزقها حتى ولو كنت لا أملك تحتها
 وجهاً ! ...

قلبي المشحون بجبره الرمادي ، سأسلمه لبحري : ليهندي ، ويهذي ...

...

* كنت يومئذ أكتب في المجلة نفسها عموداً أسبوعياً بعنوان « كلمات بيضاء » .

الليلة ...

أنا وحيدة ، ولا أرى سواي .
وحيثما لا أرى سواي ، أراك أنت ، وحدك ، وبوضوح .

• • •

خنجر مدفون في لحم ذكرياتي أنت .

• • •

لست آسفة ، لشبكة الدم المتجمد على جسد الحكاية الجريح ...
تباركت الريح التي عصفت بالحقل الكبير ...

• • •

كما علمتني ، أقول :

شيء واحد ،

شيء واحد يجعلني أظل أعدو بالمشعل ..

هو أن الأيدي التي ترميني بالحصى والشوك خلال عدوي ،

هي نفسها التي تصافحني مهتة بعد كل جولة ، حينما أصل دون أن أسقط ! ..

• • •

كما علمتني أقول :

الإبداع جرح لم يسممه الحقد !

• • •

لما انتجبتك في صدري ، لما امتصصتكَ ظل وثن ، لما ارتحلتُ على أصداء كلماتك
الأخيرة الخزينة ، لما تفصّد الدم الرمادي من مسامي ، بدا القاع مغريباً ، ونداءه وحده
يحمل السكينة والانطواء ...

وبالحاسة التي تجعل الفيلة تدرك من تلقاء نفسها أنها ستموت قريباً ، فتتجه إلى مقبرة
خاصة ، حيث كل يتولى دفن نفسه ، بالحاسة نفسها بدأت أحفر في الرمل بسرعة ..
لكنني لما رأيت الأيدي (الصدقية) تتراحم حولي بالرفوش ، لتمد إليّ يد المساعدة بإهالة
التراب فوق ، حملت الراية من جديد ...

كما علمتني قلت : كلما حفرتم لي قبراً اتخذته أساساً لبناء قلعة .

• • •

لأنني منحتك كالأطفال : كل شيء ، فأنا ما زلت أملك الكثير ...

• • •

عدت إلى الزحام

« في الزحام لا أحد » ...

• • •

رحلك ساعة انغرس بكى . كان كعينك بريئاً ونيلاً . لم يدر . لم يدر .

• • •

صفاء صخرة مبتلة مبرحة بعد عاصفة المطر والرعد والصواعق .

حزن صخرة أحببت ذلك الزلزال .

صفاء . حزن . الحبر في عروقي رمادي ، والدم في مجبرتي رمادي ،

وعينك ، أذكر أنني قلت لك مرة في لحظة مباركة : أحبهما هكذا ، رماديتين .

٦٥/٩/٢٠

ماذا أكتب !

ماذا أكتب ؟ ^(١) ..

أسبوع وأسبوع وأسبوع .. ستة أسابيع ، والسؤال خطي عساكر تراوح في مكانها فوق رأسي ..

ماذا أكتب ؟ ..

ماذا أقول للناس هذا الأسبوع ، حينما أفتح نافذتي في هذه الصفحة ، وأطل منها عليهم ؟ ..

لا أدري لماذا ، ربما للمرة الأولى ، عجزت عن تجاهل أمر طالما عرفته ولم أبال به . لأنني لم أشعر قبل الآن بأنه يعني سلباً أو إيجاباً ..

إنه ربط الناس ربطاً حرفياً سطحياً بين حياة الكاتب الشخصية ، وبين نتاجه ، وتركيزهم الشديد على هذه النقطة ، إذا تصادف أن كان الكاتب (كاتبة) ، بحيث يقرأون نتاجها وكأنهم يقرأون مذكراتها ، وخطبة ١١ ..

هذه الناحية ، لم أعرها قط أي اهتمام حينما كنت أفتح نافذتي لأقول . كنت دوماً أصرخ في الأظافر المشهورة في يؤبؤ عيني ، وبملء فمي ، وبصدق ، ودون أن أتساءل : ماذا سيقولون ؟ وكم عدد رسائل الشتائم التي قد تنهال ، وتعرض نماذج منها في (متحف) يريد القراء .. أو كم عدد الأكف التي قد تضيء أصابعها تصفيقاً ؟ ..

ولم يكن تجاهلي هذا استهتاراً ، وإنما رفضاً لأسلوب في التذكير اعتبره خاطئاً ، وأعتقد أن في مجرد مراعاتي له ، إقراراً به .

(١) كتبت ، بعد إعلان خطبتي بشهر صمت خلاله عن الكتابة .

ولكنني هذه المرة ، فوجئت بنفسي أتساءل : « ماذا سيقولون » إلى جانب تساؤلي :
ماذا سأكتب ! ..

لماذا ؟ ..

ربما هو احساس جديد بمسؤولية إضافية : بإنسان آخر هو معي — بطريقة غير
مباشرة — ودوماً ، وحتى حينما أفتح النافذة لأقول ، ولألتقي حصاد صديقي ..

أسبوع وأسبوع وأسبوع ..

ماذا أكتب للناس ؟ ..

لو نشرت قصة عاطفية ، أية قصة ، ولو من أرشيفي القديم ، لقالوا : إذن هذه
هي قصة الخطبة ! .. ولتبدلت أسماء أبطالها في أذهانهم إلى اسمي واسم خطيبي .

ولو نشرت قصة ، واستغنيت فيها عن البطل ، قصة راهبة مثلاً ، أو امرأة وحيدة
في جزيرة على طريقة (روبنسن كروزو) لقالوا : إذن ما زالت حزينة ووحيدة ، وبلا
بطل ! .. ها هي نخون خطيبها مع « الغربة » ! ..

إذن نتخلي عن فكرة أية قصة عاطفية ..

قصة بوليسية ؟ .. سيقولون : لقد دخلت منذ الآن في جو الزواج الارهابي ..

قصة فكاهية ؟ سيقولون : أما قلنا لكم إن (مشاكل الوجود) التي تطرحها الكاتبات
ليست سوى تصوير مضخم لمشكلتهن في البحث عن زوج ؟ .. ها هي قد نسيت أحزان
« بيروت التي لا بحر فيها » واستحالت الفجيعة الإنسانية في « ليل الغرباء » إلى مسرح تهريجي
ضاحك ! .. يا للسطحية والزيف ..

فلأصرف النظر عن نشر قصة ..

ولكن ، سيقولون فقدت موهبتها إثر هذا الحادث المؤسف ! .. الخطبة ! ..

فلأكتب قصة على طريقة كليلية ودمنة ، وليكن أبطالها من الحيوانات . سيقولون :
قصة رمزية ... شيفرة سرية .. لمن ؟ لماذا ؟ ..

فلتكن قصة للأطفال ..

سيقولون : الأثني تنتصر ، وها هي منذ الآن تمد القصص لأطفالها ! فلأكتب

قصة وطنية !! .. يقولون : هذا « الخافق المعذب » وبدأت مسرحية القضايا العامة ..

فلأكتب مقالة .. مقالة اجتماعية مثلاً . يقولون : بدأت تمهد للانضمام إلى « الجمعيات الخيرية » والتجمعات النسائية لعرض الأزياء تحت اسم « اللجان التنظيمية » لجمعيات مثل « جراب الحاي » تصلح لجميع المناسبات ما دامت تتيج عذراً اجتماعياً « فخرياً » للتخلص من الزوج المسكين .

ماذا أنشر إذن ؟ مسرحية من الالامعقول « كالطوفان » ؟ .. يقولون : لقد دخلت سريعاً في مرحلة الهذيان ، وداخت بين واجباتها في مختلف غرف البيت الذي لما تسكنه بعد ! .

ماذا أنشر إذن ؟ ..

وتذكرت حكاية قديمة ..

فلاح ركب حماره متجهاً إلى السوق ، بينما سار ابنه الصغير إلى جانبه .. مر به الناس فقالوا : « أية قسوة ! يترك ابنه المسكين يسير بينما يستأثر هو بالحمار » ؟ فتزل عن الحمار وأركب ابنه . مرت به مجموعة أخرى من الناس فسمع همساتهم : « ما هذا الابن العاق .. يترك أباه الشيخ يمشي ، ويسترخي هو على الحمار !! » .. فما كان من الفلاح إلا أن قفز هو أيضاً على ظهر الحمار الذي سار بهما بخطى بطيئة . قال الناس : « لقد فرغ القلب البشري من الرحمة بالحيوانات .. هذا الحمار المسكين سيموت اعياء لتقلهما » ..

وهنا هبط الفلاح عن الحمار ، وأنزل ابنه وتعاونوا على حمل الحمار ، إرضاء لجمعية الرفق بالحيوان . ومر بهما الناس فانفجروا ضاحكين هازئين : « انظروا إلى جارتنا المسكين .. لقد أصيب بالجنون » .

فأنزل الحمار عن كفته ، وسار ثلاثتهم جنباً إلى جنب . لم يبق أمامه إلا هذا الحل . ومع ذلك ، سمع الناس يقولون : لماذا اشترى الحمار إذا كان (سيماشيه) كأنه صديق قديم أو فرد من الأسرة ؟؟ ..

ماذا أكتب ؟ ..

سأكتفي بتجربة الفلاح ، ولن أستشير أحداً . ولن أخاف الأصوات الراضية لي ،
ولن أماشي الأكف المؤيدة التي تضيء أصابعها تصفيقاً ..

وسأكتب حقيقي وصدق كما فعلت دائماً ... وليكن ما يكون !! ...

• كان أن فُسخت الخطبة !! ...

كتابات طفولية في زمن ذاكرة الياسمين بدمشق...

أنظر ، كل الطرق التي كنت تسلكها انغلقت .
ما عدت تعطى حتى المهلة
لتمضي ولو تأثها . الأرض التي تتوارى .
وقع خطواتك التي لا تتقدم
لماذا تركت الموسج بغطي
صمتاً عالياً جثت إليه ؟
النار تحمي صحراء في حديقة الذاكرة
وأنت ، يا ظلاً في العتمة ، أين أنت : من أنت ؟
أنت وحيد الآن رغم هذه النجوم :
المحور قريب منك وبعيد عنك .
مشيت ، يسعدك أن تمشي ، ولن يتغير شيء
دائماً الليل نفسه ، الليل الذي لا ينتهي .
وانظر ، انفصلت عن ذاتك .
دائماً هذه الصرخة نفسها ، لكنك لا تسمعها
أأنت الذي يموت ، أنت يا من فقدته القلق
أتراك ضعت ، أنت يا من لا يبحث ؟

- إيف بولفوا -

ستنشد المدينة من أجلي !

وجودي زينتُهُ حتى أضعته وما دريت .. غزلت ليالي طويلة من تبعية واستسلام
ما أدركت ... حتى تفجرت النجمة بين أهداي فانفلتت بين استنكار القطيع ودهشته ،
أدوس اكليل الخوف ، وأبحث عن وجودي ، لأتحدى الوجود كله بوجودي .. لو
وجدته !! .. أبحث عنه لأعجده بأن أعريه وأبارك صدقه .. من وجد نجمة ، لا يسجد
لآلهة التمر .. يرفض بركة التبغ والكافيار ..

ويثور في أعماقي حزن ملتانع جاف .. أحس إحساساً مفعجاً بأنه كانت هناك أشياء لم
أبك من أجلها بما يكفي .. أشياء ما زالت غارقة في أعماق أعماق رفضي وعنادي
ورواسي .. وانها ستظل أبداً خفية دفية .. يا رعب المقابر يوم تغفر أفواهاها لتكشف عما
بداخلها .. يا خوف نفسي مما بنفسي .. يا نجمة تضيء .. تتوكل على قلم .. تهلّ في مهرجان
السطور ..

لأن الخوف انحسر ، عدت أبحث عن وجودي من أجلك .. وأنا لم أعد أخشى
شيئاً .. وأنا كاهنة الخريف .. أطوي أحزاني وأبجل بصديقي .. وأنا متعبة ، كلما بحثت
عن نفسي اصطدمت بشتاء الصمت .. ضاعت يداي في صقيع الصمت .. لم يعد للشفاه
همس .. لم يعد لصخب المدينة صوت .. لا أسمع حفيف أنفاس أي إنسان .. الطيور
والكنائس وشفاه الأطفال خرس جامدة .. الصمت احتل المدينة .. انسكب من
مداخلها وشرقاتها .. الصمت .. وحسرات بحر خرست أمواجه الصمت .. لم تعد
زرقة السماء تزغرد ..

وأهرب ...

بين أكسداس من الأسطوانات أدفن وحشّي وقلقي .. إلى عالم الموسيقى أهرب من
حسراتي ونزقي ولهفتي .. أستسلم لزبد اللحن يغمر وجهي في ثرائه .. أستسلم لموجياته

تبعثني موجة فضية في الشاطئ الأسود .. أستسلم لدواماته تحتويني .. تُفجّرني في أغوارها
 اللهب ، غجرية مجنونة الرقص وحشية الانفلات .. تلصقني لؤلؤة وادعة بخد صدقة
 عذراء .. أستسلم للحن يغسلني .. بحررني .. يشحنني بالثورة ، بالحنين ، بالإصرار
 بعناد العناد .. المدينة ما زالت خرساء لكن مدينة جديدة تولد في دوامة اللحن .. المدينة
 التي أحب وأريد .. عدت أهرب من جديد إلى نشوة الحلم ونخبة الحلم .. يا مدينتي
 الخرساء ، سيول الأحزان تتجمع .. تسيل من عيني دمعاً .. دمعاً واحدة من عين
 واحدة . عيني الأخرى جافة . حادث كبير في حياة امرأة لا تبكي أن تسقط من عينها
 دمعاً ..

ويصمت اللحن .. وترقد النجمة بين أهدائي وادعة .. نجمتي التي تستند إلى قلم ،
 وتشرّد في مهرجان السطور ..

وأهدأ .. وجدت دربي الجديد ونفضت اكليل الخوف .. الصمت ؟ من يبالي ..
 يوم أجد نفسي وانتمائي الحقيقي وحلفائي ورفائي أكون قد وصلت .. وستشدد
 المدينة من أجلي .

أنا دمية الساحرة الشريرة

الدمية السوداء معلقة في المديح .. أنها تمثال الساحرة الشريرة ، التي يكرهون جميعاً
شروها .. خيط رفيع يشدها إلى السقف .. تتأرجح في سحابة من بخور وهاويل ..
تنوس كلما غرس فيها رجل دبوساً أحضره خصيصاً لذلك ، وهو يهتف بحماسة جوفاء :
مت أيها الحقْد .. رجل آخر يسدد دبوسه إلى عين الساحرة ويصرخ : مُتْ أيها الحسد ،
مُتْ أيها الكذب ، مُتْ أيها الرياء .

عشرات الدبابيس تنغرس ... عشرات الشتائم تنهمر .. موتي أيتها الانتهازية .
أيتها الدبلوماسية الصفراء ..

دمية الساحرة السوداء لا تشكو .. يغيبهم ألا تعول وتنتعج .. تهوي إلى الأرض ..
تتناثر .. البدائيون يرقصون فوق الحطام .. يدورون وفي أعينهم فرحة مزيفة بلهاء ..
يحتفلون في لهاثهم المحموم بموت آثام الوجود .. وفي أفق ما .. يقهقه شيطان بسخرية
وفخر ..

• • •

شمس اليوم التالي تتسلل بفضول إلى القرية ، وفي أهدابها الشقر حلم بيوم طيب ،
بعد أن خبرها الليل بأن البدائيين قد قتلوا الشر ... ولكنها في المساء تلملم أهدابها
بانكسار ، زاحفة إلى مغاورها الرمادية .. فقد رأت أن الرجال ما زالوا يُقتلون من أجل
اللاشيء .. ورأت أن العاشق الطيب يشتم امرأة لأنها لم تبادله الحب .. ورأت صديقاً
يتخلى عن صديقه ، لأنه ظنه بحاجة إليه .. ورأت أن حفار القبور ، قد اتفق مع الطبيب
على التآزر والاتحاد ... ورأت أن زوجة الحارس الذي سرق من أجلها في الفجر ، قد
هجرته إلى عشيقها في المساء .. ورأت الأطفال يحصبون فتاة تحترم عدوها ، لأنها لم يحاربها
من وراء قناع ..

الشمس دهشت .. دمية الساحرة الشريرة حطموها .. من أين أتى الشر؟ وفي أفق ما كان شيطان يقهقه بسخرية وفخر ..

وفي المساء عادوا إلى حلقتهما من جديد في (يوتوبيا) زجاجية الجدران يسمونها « المقهى » .. تمثال الساحرة الشريرة ينوس في الوسط .. يأكلون بعضاً من لحم نية ، ثم ينهضون والدم يسبح من أفواههم ليرقصوا ويعربدوا حول تمثال الساحرة الشريرة .. ليتجمع الناس .. لإنهم يقتلون الشر لينفخ في الأبواق .. لإنهم يقتلون الشر .. تمثال الساحرة تهاوى .. مات الشر ..

وفي أفق ما كان شيطان يقهقه بسخرية وفخر .

ملايين الدمى ظلت تهوي منذ عصور وعصور .. بدأوا بالساحرة في ثيابها السرد ومكسستها الأسطورية .. أحرقوا جان دارك .. مزقوا ليلي الأخيلية . سحلوا في القرية ألف امرأة قالت : لا .. وألف امرأة قالت : نعم .. وألف امرأة لم تقل شيئاً ..

وفي عصر الصاروخ والتطور ، حافظوا على التقليد البدائي نفسه .. لم يقدموا للإنسانية أسلوباً جديداً لقتل الشر تختفي به ..

دمية الساحرة الشريرة كثيفة وهادئة .. تموت ونحيا بصمت ... تشفق أحياناً عليهم لأنها تعرف أنهم يخدعون أنفسهم .. مرة التقت نظراتها الحزينة بنظرات إنسان طيب أزرق العينين مد دبوسه الكبير ليغرسه في صدرها ويهتف : لثمت أكاذيب الأصدقاء .. وكان في عينيها حنان لا حقد .. وكان في عينيها تجلد إنساني ممزق ..

توهجت لحظة صدق وصفاء أمامه .. نار المعرفة والفهم اشتعلت بين يديه .. انطلق هارباً وهو ينتحب ويقول : مسكين (بروميثيوس) ... كم تعذب !! ..

وقالوا في (اليوتوبيا) زجاجية الجدران انه جن ! .. احتجب أياماً عن البدائيين .. رأوه يسير مع الساحرة الشريرة .. صلوا من أجله كي يشفى .. رفعوا القرائن لإله الكذب والدس كي يشفى .. واحتفلوا يوم عاد إليهم فنفضوا في الأبواق وابتاعوا دبائيس

جديدة .. دمية الساحرة ظلت هادئة وصامتة وكثيبة .. وفي أفق ما كان شيطان يقهقه
بسخرية وفخر . !

• • •

لماذا لا نهدأ قليلاً .. ونقولها كلمة صريحة .. منذ عرفنا الشر ونحن نمزق دمية الساحرة،
فهل مات الحق، والغدر بالذين وهبناهم الكثير من نفوسنا .. أو القليل الصادق ؟ ..
لماذا لا نهدأ قليلاً ونقول اننا بلارب قد أخطأنا الساحرة ؟ .. واننا ما زلنا بدائين ..
واننا ننسب للآخرين صفاتنا التي نكرها في أنفسنا .. وأن دمية الساحرة ليست إلا
الظلال التي ترميها أعماقنا على الأشياء .

لماذا لا نلتفت إلى أنفسنا ؟ ..

قليلاً من الصدق .. قليلاً من التواضع .. ثم يغرس كل منا دبوسه في أعماقه ..
في أعماقه ..

دمشق ١٩٦١/٩/١٢

لا شيء سوى قطع فسيفساء !

حياتنا مجموعة أشياء صغيرة وصغيرة جداً .. قطع من الحصى يرصفها القدر الذي نصنعه ، والذي لا نصنعه ، فإذا وجدنا لوحة من الفسيفساء في ركن معبد مهجور ، يلحقها الليل ويغزوها الغبار .. لوحة من الفسيفساء في تقطع حصاها وحدة ، وفي تباينها انسجام .. تذهلنا هذه الحقيقة يوم نكتشفها ، لأنها لا تتفق وأحلامنا المثالية ، التي كنا قد حملناها قبل أن نمارس الحياة العملية ..

منذ أعوام كنا ندب في درب الطفولة ، وننتقل من مرحلة دراسية إلى مرحلة ، ونحلم باليوم الذي ندخل الحياة العملية فيه ، فنصل إلى المعبد لرسم على الجدار الذي ينتظرنا لوحة وجودنا .. وكنا لا نعرف إلا أننا وجدنا أنفسنا في أول الدرب ، وأن علينا أن نسير ونسير إلى حيث يوجد المعبد .. وأن علينا أن نتزود من هذه المرحلة (بشهادة دراسية) وحلم وأغنية ، تساعدنا على انتقاء ألوان لوحة وجودنا .. وكنا نتجاهل مئات الأسئلة التي تفرض نفسها علينا : « من أين جئت ؟ » ... « إلى أين أمضي ؟ » ... « لماذا أرسم اللوحة ؟ » وكنا نهرب من رعب السؤال إلى رعب الصمت ، ومن رعب الصمت إلى عالم الحلم .. فنحلم .. نحلم بريشة الرسم الفاخرة والدهانات الثمينة بألوانها المبهجة العريضة ، ونحلم بصخور شفاقة ننحت منها إطاراً للوحة ، ونحلم بأننا سنصطاد شمساً ندقها في إحدى زواياها .. ونحلم .. ونحلم ...

...

ويوم دخلنا الحياة العملية ساعة وصلنا إلى المعبد ، اكتشفنا أنه غول رمادي الهرم .. وأن إطار اللوحة الموعودة حشائش بحرية لزجة .. وتصقنا الحية إذ لا شمس في المعبد .. لا ريشة .. لا صخرة زجاج .. ونلدرك فجأة أن كل ما كنا قد حملنا به ، كان أبخرة وهم عقيمة لا تحترق .. من منا ينسى خيبته يوم استلم عمله الأول ، واكتشف أن له

منضدة حديدية باردة وخزانة حلي (بالمصنفات) ومجرة كأي (مجموع) ؟ .. وهو الذي لم تقنع أحلامه خزائن بابل وعروش فارس !! ...

ونجمد . تذبل أهدابنا . الحية قاسية ، ونحن أمام منظر لم نكن نتوقعه .. فننكب على دروسنا وكتبنا وتقاليدنا .. ننبش الحروف بحثاً عن إيضاح .. نعصرها .. نسحقها بحثاً عن كلمة عنراء لم تلثمها شفة قلم .. لا شيء سوى رعب الصمت .. لا شيء سوى قسط فسيء تغرسها العاصفة في اللوحة .. ونضيق في الإعصار .. الأسئلة التي كنا نغطيها بزيد أحلامنا ، تنتصب من جديد عارية القسوة وخازة .. رعب الرعب في صحارى اللاجدوى هو الجواب .. ونذكر أنه ذات ليلة سنتنقص من كوة المعبد عاصفة بنفسجية تصلبنا فوق اللوحة بمسامير من شوك ، وحينئذ فقط تكتمل لوحة وجودنا ..

ونروح نهمل أشياءنا الصغيرة ، ونغمرنا الآلام والمتاعب ، ولا ندري لماذا .. فنحن في غمرة قلقنا وخوفنا ، ونحينا على حلم شبابنا الممزق ، نتجاوز أشياء كثيرة صغيرة هي في الواقع وجودنا الذي نملك .. بسمه صديق .. كلمة طيبة .. ثانية تفاهم ووفاء تتجاوز الأبعاد الزمنية وتخلق في ثانية دهوراً من سعادة واطمئنان .. ولو دققنا النظر في حياتنا لدهشنا .. لو حاولنا أن نكشف عن العلة التي تقف وراء أهم أحداثها وتقلبنا لوجدنا أنها أشياء صغيرة ... فسيء ..

أنت ، وأنت تسير ، قد تلتقي بعينين تشدانك وراءهما العمر بأكله .. وأنت تتبعهما مستسلماً ، كأنك لم تمض عشرات الأعوام تقرر كيف يجب أن تكون شريكة حياتك ، وترسم لها وتخطط ... ذبابة واحدة تقف على أنف شرطي السير وتضطره إلى رفع يده وطردها قد تسبب صداماً مريعاً ، وتسبب وقوف سيل من السيارات وربما موت مريض ما ينزف في إحدى السيارات ... مجرد حركة يد .. فسيء ..

أنا كدت أقتل اثنين من أطيب وأعز الناس بحركة يد خاطئة .. كان هنالك مصعد أسرع إليه .. أهملت النظر إلى شارته الضوئية قبل أن أفصح بابه لأتحقق مما إذا كان قد بدأ هبوطه أم لا .. والذي حدث أن المصعد كان قد بدأ هبوطه ، وأنه توقف في نصف الطريق إلى الطابق الذي يليه ساعة فتحت الباب ! .. وهذه حالة نادرة ، ولكنها تقع ! .. وأطلت من الباب المفتوح على خوف إنسانين سجينين في قعر البئر . لم يحتجيا بكلمة .

وابتسمت ببلادة .. واعتذرت وأنا أشعر بالكلمات مضحكة بليدة وبالاعتذار أسخف
اختراعات المجتمع .. فقد كنت بحاجة إلى أن أبكي .. يد أحدهما كانت مدفونة بين
أربطة بيض بسبب جرح سابق أسفت فعلاً يوم أصيب به .. ومع ذلك كدت أقتلهما
أنا التي أحتاج إلى دهور من حقد قبل أن يخطر لي شتم انسان .. وأنا التي حلمت بريشة
البراءة ترسم الشق الأكبر من لوحة وجودي .. لا شيء في اللوحة سوى فسيفساء ..
بطرف أصبعي كدت أهيل عليهما كتلاً من الأربطة البيضاء فتغمر الملامح الهادئة والوجه
الطيب ... وأظل أدور في المعبد هلعاً من أن تهوي صخرة تسحق قدمي فأنسى الحصى
الذي يدميهما والذي يمزقها كما لم تفعل صخرة .

لماذا لا نقتنع ونقنع بأن قدرنا فسيفساء ؟ قد لا تكون قطعته مصقولة ولا منتظمة
الخوافي .. حسبنا أنها حقيقية ! ..

لماذا لا نبدأ من جديد ، نتوقف عن رفض الأشياء التي كنا نظنها تافهة ، ونحاول أن
نصنع منها شيئاً ثميناً ولو كان صغيراً ، عميقاً ولو كان محدود الاتساع ؟ ...

لماذا لا نبدأ منذ الآن .. فيستحيل فسيفساء لوحة وجودنا شيئاً مدهش الأبعاد ..
وإذا بكل فيروزة فيه بحر عميق .. وكل زهرجدة ربيع .. وكل عقيقة خمرة أصيل ..
وكل رعشة سنوات انفعال ..
لماذا لا نحاول ؟ ..

دمشق ٢٩/٨/٦١

توهمت أنني طفلة

هل تؤمن بالنصيب ؟ ... وهل تعتقد أن هذه الكلمة تكفي لتبرير حادثة (مربية) كحادثة زواج ؟ وإذا كنت تؤمن بالنصيب ، فهل تعني به شيئاً تختاره أنت ، أم شيئاً مفروضاً عليك ؟ .

ألا تشعر أحياناً بأنك كتلة من أعصاب ثائرة مبدعة ، وانك تستطيع أن تعيد تصنيف نجوم السماء المبعثرة ، وان النصيب هو ما ترسمه أنت ، وأنت وحدك ؟ .. ألا تشعر في فترات أخرى ، ان خيوطاً عنكبوتية خفية لا دخل لك فيها ، تشيد ملائكتك وتصرفاتك وعواطفك ؟ ... وأنتك تبتسم وتتحرك وأنت شبه منوم ، كأن شعاعاً مبهماً ينهب أعماقك ، ويسلبك ارادتك ؟ انك تبحث عن تبرير لأعمالك بعد أن تقوم بها ، تحاول أن توجد لنفسك سلسلة منطقية تشد تصرفاتك كلها بشكل (معقول) .. فتصدق نفسك ، وتكاد تؤمن بتبريراتك ، وتضع في بحران من الحيرة ، لأنك تؤمن داخلياً بأنك لم تكن (أنت) الذي تصرف ، ومع ذلك فإن مسؤولية هذه التصرفات تقع (اجتماعياً) عليك ... وفي لحظة ما ، تسأم من حاجتك إلى تبرير نفسك للناس ، فتصرخ فيهم : انه القدر .. « نصيب » ... وفي لحظات أخرى تشعر بأنك لست مديناً لأي إنسان بأي تبرير ، فتكتفي بالصمت ، وبالتساؤل المتعب : لماذا فعلتُ هذا ؟؟ ...

• • •

أثارت في نفسي هذه الخواطر صديقة رأيتها بعد فراق طويل ، وكان في أصبعها خاتم ذهبي التمع بشدة حين قالت : نصيب ! ...

ولم أستطع أن أفهم إن كانت تعني ، النصيب الذي اختارته هي ، وهي بكامل قدرتها على الاختيار ، أم « النصيب » الذي ظنت أنها اختارته بينما كانت خيوط القدر هي التي حركتها ، وهي التي (اختارت) لها أن تختار !! ...

عرفتها منذ ست سنوات ... طالبة جامعية حسناء لم تبلغ العشرين .. وكنت يومئذ تلميذة في الصفوف المتوسطة ، أقرض الشعر سراً ، وأكتب القصص ، وأبكي مصير ماجدولين وسيرانو دي برجرارك دون أن يشعر بي أي إنسان ... وجاءت هي مع أهلها تزورنا في المزرعة المتعزلة التي نقضي الصيف فيها .. وهناك ، بين أحضان أجمة منظرحة عند أقدام بردى جلسنا نتحدث ... كنت بحاجة إلى البقاء وحدي وإلى الكتابة ، وكانت على ما يبدو بحاجة إلى الكلام .. إلى أن نتحدث إنساناً لا يعرفها ، ولا يستطيع أن يؤذيها ... وكان في وجهها كآبة حقيقية ويؤس ملئع .. ولعلها أنست بي ، وخيل إليها أنني طفلة لا يمكن أن تفهم في الحب شيئاً ، وأنها تستطيع أن تريح نفسها بالحديث دون أي خطر .. فأخرجت دفترأ أصفر من حقيبتها وبدأت تقرأ :

من رآها ، خطوطها حلم بأجفان الورود
وحنين ظامئ للافق ، للافق البعيد
وشعاع تاه في الخضرة ، كاللحن الشروذ
كضياء اللون في اللون .. كأنفاس الوليد

واستمعت إلى القصيدة بأكملها بنشوة ملأتها سعادة ... هل كانت الايات ؟ أم المكان ؟ .. أم أسلوبها الخاشع في تلاوتها ...

وسألتها : من كتب هذا ؟ .. قالت : صديق صديقي ... ولم أصدقها . بينما عادت تتغذى بالتلاوة :

واذكري الشاعر دوما للربى لقطيع الماعز المسترسل
بلحاء ييسم الراعي لها وعلى الاعناق همس الجللجل
لوريقات على النبع ارتمت لارتعاشات بصدر الجلول

وعدت أسألها : من كتب هذا ؟ .. قالت : صديقي ... وانفجرت باكياً .. وهوت الأوراق بين يدي .. وأقبلت عليها وأنا المغرمة بالكلمة الحلوة .. ورجوتها أن تترك الديوان لدي ، فقبلت بعد لأي .. ولما أعدته إليها بعد أيام ، لاحظت أنها كانت قد نسيت ، واضطرتني برودها إلى أن أخفي اعجابي بالأيات الحارة الصادقة .

وتهاوت الأعوام .. وسمعت أنها أنهت دراستها الجامعية بنجاح .. وكنت أراها في فترات متباعدة ، فصرة رائعة ، واذكر الشاعر المجهول الذي رفضت أن تبوح لي باسمه ، واذكر وجهه الشاحب الغامض الذي كان يترامى لي من خلال سطوره الفسقية .

.. وأخيرا رأيتها منذ أيام ، وخاتم الزواج الذهبي ياتمع في اصبعها ..

وتذكرت ما قاله الشاعر :

تري هل نعود

فلم الحنين

وتقطف يا زارع الزيزفون

ثمار الخريف .. مع المهاجرة ..

وتساءلت طويلا : تري هل عادت ؟ هل أزهر الزيزفون في حديقة الشاعر الطيب

من جديد ؟ .. هل تزوجته ؟ .. قلبي قلق عليه ! ..

ووددت أن أسأله عنه . لكنني خشيت من أن تسخر مني وتكون قد نسيت كل

شيء ... وظل الشاعر سراً ... سراً مغلقاً كابتسامتها وهي تقول لي : نصيب !! ...

تراها كانت تعني بهذه الكلمة رجلاً اشترأها، وتريد أن تتنصل من مسؤولية ذلك ؟ ..

كلمة نصيب لا نصيب لها من احترامي !! ... غالباً على الأقل ! ..

دمشق ٢٢/٨/٦٩

الحقيقة رائعة .. مهما تكن ممزقة ودامية

من قال إن أراني البيض ماتت ؟ من قال انني لم أعد أبالي بأي شيء يحدث في الوجود ، بعد أن لقيت أفسى ما فيه ؟ من قال انني سأظل أطل على الأشياء بعينين زجاجيتين فارغتين كنافذة بلهاء ، لا أبالي إن جرح خد القمر أو انتزعت الشمس قيودها الذهبية الأسلاك من الصحاري وانفلتت هاربة إلى كون آخر مهجور ؟ أنا هي التي قالت ذلك ذات مرة ؟ .. وهل صدقتها ؟ ..

ربما كنت أخدع نفسي حينما قلت ذلك .. ربما كنت أعيش حكاية الثعلب - والحصرم - المشهورة ... هل تعرفها ؟ قصة الثعلب الذي رأى كرمه مرتفعة جداً . تتدل منها عناقيد شهية ناضجة ، سكبت فيها الكروم خمرة شمس وعبر ، فاشتناها كما لم يشته شيئاً من قبل .. وحاول أن يقطف عنقوداً ففشل .. كانت العناقيد كلها مرتفعة جداً .. أعلى من أن تنالها قفزاته وحيله وأساليبه .. وبعد طول فشل ، أقع على الأرض تحتها وقد أخذ التعب منه كل مأخذ .. ورماها بنظرة اشمئزاز وهو يقول بتعال واحتقار : انها لما تنضج .. ما زالت حصرماً .. لا أريد أن أكل منها .. لا أريد !! ..

• • •

هذا الأسلوب في خداع النفس نمارسه جميعاً .. يمارسه عاشق فشل في التسلق إلى شرفة الحبيبة ، وأعيته نوافذها الموصدة ، فمضى بعد طول توسل يشتم الشرفة التي كانت منارة ، ويتمهم النوافذ بالقذارة ...

ومارسته أنا يوم قلت ان أراني البيض ماتت ، وانني لم أعد أبالي بشيء ... فقد عدوت طويلاً وراء عناقيد الطمأنينة والثقة ، وفشلت مراراً ... ونفقت أراني البيض ، وغمرني هوان الفشل وكبرياء الفشل فقلت إنها اللامبالاة والسأم ! .. من يعرف ؟ .. أنا أعترف اليوم .. أريد أن أعري واقعي ، فعري الحقيقة لا يعرف

المعجور ، لأن الحقيقة رائحة مهمما كانت ممزقة ودامية لمجرد أنها حقيقة .. ولأنه ليس خطأ أن تكشف أنك كنت على خطأ ، وانك كنت تجامل نفسك وتخادعها . ولكن الخطأ في أن تستمر مكابراً حتى بعد أن تكشف الحقيقة ... الخطأ في أن تظل تغلق النوافذ وترخي الستائر ، ثم تصر على أن الشمس لما تطلع ، وأن الليل ما زال يغزو المدينة .. إن الشاعر الأميركي الكبير - والت ويتمان - كان يفخر بأنه يقول الصدق في كل لحظة ، الصدق الذي يعيشه والحقائق الجديدة التي يكشفها ولا يهمه إن ناقض نفسه أو كذب ما سبق أن أكدّه ..

• • •

أنا قد فشلت مرة ، ومن لا يفشل ؟ .. لكنني أكتشف اليوم أنني كنت قد خسرت جولة واحدة لا معركة .. وأنا قد خدعت مرات ، ومن لا يُخدع ؟ .. وأنا قد تلقيت الطعنات في ظهري ، لكن هذه الطعنات بالذات كانت تؤكد لي أنني أسير في المقدمة .. وأنا قد تأملت فعلاً .. ماتت أراني البيض جيلاً بعد آخر .. لكن كبرياء الألم ، هي التي كانت تزيّف الأشياء يوم قلت : - إن أراني البيض انقضت ، لم أعد أبالي بأي شيء ! - كبرياء الطفل الذي يأبى الاعتراف بأن أمه ضربته ، لأنه ما زال يحبها ! .. فيتظاهر باللامبالاة والرفع وهو يعرف أنه يحب أمه القاسية هذه .. أجل .. أحبها ! .. أمي : الحياة ، أحبها .. بكل ما فيها من بربرية ومدنية أحبها .. وأحب زئير أسدها وحفيف أجنحة طيورها .. أحب برقها الذي ينشق على سعادتي تارة ، والذي يحرق أهدائي تارة أخرى ويخلفها كهشيم بيدل .. من لا يحب الحياة رغم كل ما فيها من قسوة وجحود ؟ .. من لم يعيش هذه المأساة ؟ .. إن حبنا إياها نفسها ، وتمسكنا المجنون بها رغم ما فيها من لامبالاة بانسانيتنا هو الذي يثير كبرياء المسن .. كبرياءنا تفرض هذا الواقع الذي لا مفر منه .. تريد أن تعاقب الوجود الذي أهملها باهمالها إياه ، وأنا حاولت أن أعاقب الوجود يوم صرخت : - أراني البيض ماتت .. الخلد يزحف نحو دفء الشفاه .. نحو بريق العينين الفضولي .. نحو حماسي ولهبي - ... كاذبة كنت ! .. من قال إن النار تعرف الخلد ؟ .. من قال إن النار لا تحرق نفسها بينما هي تحرق الأشياء ؟ .. من قال إن الإنسان قادر على أن يفقد وعيه ؟ .. من قال إن سارفض الوجود بعد اليوم وأتظاهر باللامبالاة ؟ ..

• • •

لماذا لا أعترف ؟ ..

أرانب صغيرة حلوة تعربد في أعماقي من جديد .. تحمل إلى سأم مغاوري وعداً
 بصخرة تنشق ويتفجر الماء منها .. بوهدة تفور فجأة بمحاثم من ثلج دافئ .. بقيمة لن
 تمطر إلا في شرفي .. بصدقة لن تسكب لؤلؤها إلا في مفرق شعري .. بغدير لن
 تفتح أعين اللوتس فيه إلا لأغنية جديدة فرحة أنشدها بنخسوع أمام تلال المجهول ..
 فالحياة جميلة ، وأجمل ما فيها اننا لا نموت إلا لنحيا من جديد ، لا نرفع إلا لركض
 من جديد ، لا ينفق جيل من أرانبنا البيض إلا ويؤنس وحشة أعماقنا جيل جديد ..
 ما زال في الكأس بقية ..

دمشق ٦١/٨/٨

صديقي الذي كان يغني لي .. طوال الليل !

علمونا في المدرسة أن العين آلة تصوير دقيقة تلتقط صور المرئيات ، وان عيون الناس جميعا متماثلة ، لها شبكية وقرنية ... وصدقنا هذا كله يومئذ إلى أن بدأنا نكتشف أشياء ليست جديدة ، لأننا كنا نعيشها دائماً ...

ان أي كاميرا من كاميرات العالم تلتقط أي مشهد بشكل واحد في لحظة واحدة .. ولكن عين كل إنسان تراه بصورة تغاير الصورة التي تراه بها عين الآخر ، لأننا نرى الأشياء من خلال أنفوسنا بكل ما تحمله النفس من نزوات وأمان وطين وطيب ... بل اننا نرى الشيء ذاته في لحظات نفسية متباينة بصور متعددة ...

قمرك المحبوب مثلاً الذي طالما طفت في سهوله رحالة ما عرف الوجود أسعد منه ، هذا القمر نفسه ، يستحيل حينما تكون حزينا إلى حطام امرأة عجوز ، طالما عكست ضحكات سعادتك ، أو وجه جرد أبيض مذخور ، فغرت قطط الظلام في السماء فاها لتبتله ، ولتهرب به ساعة تظل عمامة الفجر ...

فالكون ليس كوناً واحداً .. إن ملايين العوالم تتناسل ، وفي كل ثانية يولد عالم ويموت عالم في عيني انسان .. والوادي الذي يطل عليه مئة إنسان ، هو مئة واد جديد في كل ثانية جديدة .

• • •

... هذا ما كنت أفكر به وأنا مكومة في ركن شرقي التي تطل على حديقة الجيران ، والقمر الذي طالما طفت في سهوله ، رحالة ما عرف الوجود أسعد منها ، هذا القمر نفسه استحال ليلتند إلى وجه جرد أبيض مذخور ، فغرت قطط الظلام في السماء فاها لتبتله ، ولتهرب به ساعة تظل عمامة الفجر .. حتى الشجرة التي انتصبت في الحديقة لتضم شرقي بحنان ، انقلبت تلك الليلة إلى مارد مخيف تنبعث من هيكله الضخم شحنات

سوداوية رعناء الحزن . وضحكات الجيران الساهرين المتحلقين حول الأشجار في
حديثهم تغيظي ، وابتهتهم السمجة تنشد لخطيها بين لحظة وأخرى أغنية تتميز بخلاعة
بلهاء .

لم أكن أعرف كم من الوقت انقضى وأنا في جلستي هذه ، كئيبة كأم ، خرساء
كموجة أعماق ... لكنني فوجئت بأبي يتأملني بهدوئه المعتاد ثم يسألني ببساطة : « ما
هي مشكلتك الليلة ؟ » .

وأبي اعتاد أن يراني هكذا ، كئيبة كأم تارة ، وسعيدة ضاحكة كطبل تارة
أخرى ... واعتاد أن يسأل دون أن ينتظر مني جوابا ... لكنني أجبت بعد أن كرر
سؤاله : لقد ذهب ... اختفى ...

— من هو ؟ ..

— صديقي الذي كان يغني لي طوال الليل .. صديقي الذي يذكرني بصفاء غابات
شاسعة وبأمسيات صيف دافئة في حقول نائية ..

— من تعنين ؟ ..

— أعني صديقي ... الجندب !! .

لم يدهش أبي فقد ألف مثل هذه المواقف مني ، وعاد يسأل ببساطة : —

هل هو جندب (انطوائي) خاص اعتنيت برتيته في خزانة ثيابك كما فعلت
بفترائك البيض ؟ ..

— لا .. على أية حال ، في مدينة كهذه ، يحب الإنسان كائنات الغابة أكثر من
حبه للناس .

— هل هو جندب مطبخ (بوهيمي) كنت تلتقن به بعض الليالي قرب (البراد)
وأنت ذاهبة في طريقك لتناول كوب من الماء ؟ ...

وعدت أجيبه في أسى حقيقي وأنا أتجاهل مداعبته : لا ... ولما لاحظت حزني الصادق
بدت علائم الجلد على وجهه واسترسلت أحدثه عن صديقي الجندب ... إنه جاري ، كان
يقطن هذه الشجرة التي تعانق شرفتي ... وحينما أطفئ نور غرفتي كان ينشد ويهددني
.. يغرقني صوته في حلم طفولي فيه غابات ملونة الصخور وفيه صفاء نافذة تطل على

حقل ... ضحككات الجيران التي طالما أرقفتني صارت تنوب في براءة لحنه ، وأغنية
ابنتهم البلهاء المبتذلة لم أعد أسمعها ... حتى صغير القطار الكتيب كان يضع في
(إلياذته) البدائية ... أسابيع عديدة وأنا فرحة به ، بأناشيده .

وانفجر أبي ضاحكا ، وحاولت أن أجاريه في ضحكته ففشلت ..

... لأن الجندب اخضى . لأن صغير القطار المهترئ سيحملني من جديد إلى
رحلة صفراء في حقول محروقة الحشائش .. لأن ضحككات الجيران الساهرين ستسلك
من جديد أرجل سريري وتراكم فوق صدري ... ولأني وحيدة ولم أجد بعد (قومي)
أفضل الجندب على معارفي الحاليين ! ...

وفجأة ، مزقت ضحككات أبي صرخات من حديقة الجيران .. وأطلت ، ورأيت
ابنتهم الحسناء التي ينجل إلي أنها دمية من لب الخبز الأبيض المضغوط ، ابنتهم هذه قد
استندت إلى جذع الشجرة وهي ترتعد بدلع .. وعند أقدامها ، قرب الخد الساتاني
لحداثها بقعة سوداء تلتطخ الأرض ! .. وخطيبها الشاب يربت على كتفها مهدئا ...
ولما سألهم والدي : ماذا حدث ؟ ..

أجاب خطيبها بأشمزاز : لا شيء . إنه جندب خبيث لعله سقط من الشجرة .. !
لقد أخافها اللعين لكنني قتلته ! .. وأشار إلى البقعة السوداء التي كانت تلتطخ الرخام
القاهر !! .

وفي أقل من دقيقة سمعت من جديد أغنيتها المبتذلة . وظلت عيناى معلقتين بسواد
البقعة الدامي الذي أخذ يتسع ويتسع حتى غمر كل شيء !! ..

دمشق ١٩٦١/٧/٤

السفر .. أهو نزوة همجية في مطاردة ما أجهله !!

محفظتي الجلدية الكبيرة سعيدة لأنها قلما تستقر في ركن خزانتي .. إذ لا تكاد أتأمل الغبار تسمع خددا ، حتى أنتزعها من موضعها ، لأحملها معي في رحلة جديدة ودرب جديدة .. فأنا أهوى السفر ، حتى ليخيل لي أن غيمة شروداً تقطن أعماقي وتظل تلوب وترهقي في بحثها المضي عن أفق سري .. تحب أن تبعثرها نسمة وتلمها نسمة .. يغازلها قمر وتلثمها نجمة .. تطل على غنج بحر وترف بيد ، ونزف شفق .. أحب الرحيل .. كلما دارت دوامات المتاعب والأحزان حول عنقي وعريدت ، وضغطت ، ألح في الأفق البعيد شبحاً وردياً لمدينة فضية القباب تغمر لي ، كأنها رسول من المجهول ... ما ألد أن يكون في الحياة مجهول نسعى وراءه ، نسكن إليه عندما تبدو الأشياء المزيفة على حقيقتها .

. . .

هل هي رغبة في الحرب ؟ ومن أي شيء ؟ من ملايين الأسئلة التي تنصب مع كل دقة ساعة صامتة ؟ إن كنت هاربة منها ، فأنا هاربة إليها .. لأنني أهرب من غموضها ، إلى غموض المجهول وعتمته السحيقة .. أبداً فلنور في حلقة لاهتين .. وكأنما نحن نحب دوراننا وجهلنا وعذابنا .. محكوم علينا أن نحبها لأنها تشدنا إلى التراب ، ولأننا تراب عطش لا يرتوي ..

هل هي نزوة همجية في مطاردة ما أجهله ؟ أم جوع إليه ؟ .. لا أدري .. كل ما أعرفه أنني أحس فجأة أن علي أن أنطلق .. يسكرني انطواء الاسفلت تحت عجلات أربع .. يسكرني عدو ظلال أعمدة الهاتف إلى الخلف لاهثة مدعورة .. تسكرني أنات المحرك ويلذ لي منظر عامل محطة البنزين بوجهه الملطخ بالشحوم والذي يذكرني بدروب لانهاية لها ..

وأنطلق .. ونهدأ الغيمة إلى حين ، وكأننا يرضيها بجثها عن أرض طيبة تنعقد في سماها مطراً طيباً لتبدع فيها وتخلق شيئاً ما ... لتغزل شراعاً ما عند نافذة مورقة ... وبلادي جميلة .. واللاذقية جميلة .. بحرنا غنج وبيدرا ترف وشفقها نرف خمر عناقيد طيب وسكر ..

واللاذقية ودعية وطيبة ومعطاء كعروس خجلى .. ما عرف البحر استسلاماً لوشوشاته أرق وأحلى من استسلامها وخفها .. فهو يداعبها بنشوة أول شراع عائق نسمة .. ثم يبدأ لحظة عندما تتعاقب قرب أفقه نظرات متلهفة جاءت ترقب لحظة الغروب ... وتزلق الشمس إلى أحضان البحر ، فتنتفح في زرقة دائمة شهية ، كأنها وردة عجزية وحشية الحمرة ، ما عرفت أحلى من أعراسها في بحر اللاذقية وتفتيحها المثير في الموج الدافئ الدافئ ...

لم أجد في « الفرلق » عندما زرتها للمرة الأولى منذ أسابيع (بئر التمنيات) .. لم أرم في أية بئر بقطعة نقود فضية وأنا أغص على دعاء صامت ، أهم ما فيه أن أعود إلى « الفرلق » .. لكنني عدت .. عدت إلى الغابة التي توحى بداءتها بالصدق ، وتملاً غرورنا بخضوع راعش أمام جبروت الزمن ... عدنا إلى الغابة بوجوهنا عارية إلا من الحقيقة ... فالشعاع اللامرئي يمسح هناك بصمات الزيف عن خطوط وجوهنا .. وتنصب الانفعالات جريئة حقيقية فخورة بصدقها ..

وتن الغيمة - التي تسكنني - وتتلوى .. تريد أن تتيه في دروب « كسب » .. ونغضي .. وتلوح « كسب » في صدر الجبل ، وشماً بلوي الرسوخ .. غاباتها الغامضة متكبرة ، لا تبوح بأسرارها .. تنشب بالضباب الشفاف المتصاعد من أعماق وديانها ، وتلتف به في غلالة من سحر وترفع .. فأقف بين القمم ، وأشهد البحر يرقبها بحسرة عاشق سُم الجزر ، وغلبه حنين يائس إلى عناق قمة .. عبثاً يتلهف .. القمم تغرق في أحضان النجوم عندما يظلم الضباب ، وتلهث القمة .. وأنطلق من جديد في الدروب البعيدة لأن غيمتي الشروذ نمة لا تشيع .. وبلادي جميلة ومعطاء ..

-
- الفرلق : غابة بديعة في شمال سوريا .
 - كسب : قرية ساحرة في شمال سوريا .

ونمضي من جديد ..

عند خد « مصياف » يسترخي (وادي العيون) عجيب الخضرة والنضارة ..
يتدفق من وهدياته وأغواره صفاء مياه يشبه صفاء عيون أهل الوادي .. وتهدأ الغيمة ..
وترقب في الجبل المقابل خيوط دخان تصاعدت من دار ودبة بعيدة .. ويخيل إليها
أنها تشم فيها رائحة طعام دافئ ملحه حنان وثقة ... وترتعش الغيمة وتهدأ .. وتحقق
من جديد فترى شجرة وحيدة بعيداً في قمة الجبل .. شجرة غريبة وكثيفة كأنما لم
تحس أن في الوادي القريب ملايين الشجر الصديقة . وفي السماء فوقها بدر يطل بود
دونما ترفع ..

وترتعش الغيمة وتحس أن قد رهاها هو قلد الشجرة النائية لا الدار الودبة ..
وتتعمد في عقمها قطرة مطر وهي تهذي ... بلادي جميلة يا دروب التيه ..

دمشق ١٩٦١/٨/١٥

المأساة الحقيقية أن تستحيل الأشياء إلى ملل

من منا لم يعيش أسطورة السأم ؟ .

حينما يستحيل وجودنا إلى قطار يلتهب برتابة ، سجيناً بين قاضيين فولاذيين مهترئين ، لا يعرف في أي نفق مظلم الصقاً بمعجلاته ، ولا يعرف متى يسلم عنهما ..

من منا لم يعيش أسطورة الضجر ؟

حينما تتفجر اللاجلوى من الأشياء ، والقلق الذي كان يلهب انفعالاتنا يبدو أبلى سخيفاً .. الحب .. الفن .. الخلود .. شعارات زائفة فيها الكثير من مكابرة عاشقة فاشلة .. وتصاب حواسنا بلعنة (ميداس) فيستحيل أي شيء يقع تحت طائلتها إلى حفنة من دخان ضبابي ثقيل .. حفنة من ضجر . لا مهرج من طاحونة الملل التي تسحق وجودنا . ونستسلم . أي نصر نبتغي ما دام محكوما علينا بأن نموت ؟ ..

• • •

هل تعرف أسطورة (ميداس) ؟ ..

كان في غابر العصور مدينة ككل المدن .. لها سحابة ومثلثة وتوابيت وثياب عرس ، وشارع تترلق فيه وجوه عيونها مغاور حيرة وقلق واحتجاج حار ... وكان ملكها الذي يدعى ميداس مغرماً بالذهب . وظل أبداً يتوسل إلى الآلهة كي تمنحه المزيد ، حتى حققت الآلهة رغبته ، بأن جعلت كل ما تلمسه يدها يستحيل إلى ذهب وهاج .. فكان طعامه يستحيل ذهباً قبل أن يمضغه ، وابنته تستحيل ذهباً قبل أن تبارح شفتاه خلعاً .. وبعد أيام استحال كل ما في المدينة ذهباً .. وتفجر السأم من كل شيء .. وغرق (ميداس) في إحساس لزج بلا جلوى الأشياء .. ومات ميداس يوم بدأت حكاية الضجر وخمد الشوق والقلق ... ومرت أيام وأيام وولد ملوك وصعاليك .

انتصبت مدن وهوت مدن ولعة (ميداس) تنسل رعاء تغذى جذورها من لعنة الموت .. من لحظات الوعي المفاجيء بأننا سنموت دون أن نمنح حق الرفض أو الاختيار .. هكذا فجأة ، نموت . قد يحدث هذا قبل أن ننجز القصة التي نكتبها . قبل أن نحصد موسمنا الأشقر ، قبل أن يستدير البدر عند كتف الغابة ونشري الثوب الأزرق المبتغي للحببية ! ذات يوم سنشارك أحقر بعوضة في الغدير مصيرها .. سنموت !! .

كفاحنا من أجل الحب والفن يبدو في تلك اللحظة مضحكاً ، ونذكر أننا قطع يتلهى بالشجار اللامعدي ، ريثما يستيقظ الجزار وينتقي ضحية اليوم .. واننا سجناء المارد (بوليفيموس) في مغارته المربعة بعد طول تيه في البحار مع (أوديسوس) . عينه المنفردة في منتصف وجهه المشوه تطل على رعبنا وشهقات ذعرنا .. تسخر من حضارتنا وأشعارنا وأغانينا . ننهار في زاوية الكهف . لا فائدة من المقاومة ما دام المنتصر والمهزوم يشركان في مصير واحد أمام المارد « بوليفيموس » .

• • •

هذه الخواطر كلها توهجت فجأة حينما سمعت رجلاً يهتف بصوت عتيق رهيب الاستسلام : « سبحان الحي الذي لا يموت ! » وجنازة تمضي .

كنت ساعثذ غارقة بين أكاداس من الورق ، في غرفة فضولية النوافذ أضحك مع زملائي ، أجيب رنين الهاتف . أكتب ، وخيالاتي المحمومة تنفجر من قلبي ، وصريره الخاص على الورق أبواق نشوة تحملني إلى عوالم أنا خالقتها ، وقصور أنا سيدتها .. كنت أكتب .. أنتشي أخلق وأدمر .. أحيأ ..

وتسلل الصوت باستسلامه المرعب يصرخ : « سبحان الحي الذي لا يموت »

خرجت إلى الشرفة . أطلت على موكب الموت . سيارات تتبع صندوقاً راكضاً نحو قبر ما ، تلاحق احداها الاخرى كسيل من النمل الأبله يتحرك بقدرية عمياء . في الشرفة المجاورة شاب اقترب كثيراً من زميلته وأطبقت يده على يدها المسكة بالافريز وكأنه يقول لها : لماذا تهربين ما دمنا سنموت ؟ .. استسلمت لأتون يده . أحسست برغبة في أن أنفجر في قهقهة لا معنى لها .. ليست ضحكاً وليست بكاء . مجرد تهدة سأم . عندما يقبلها سيفهمان معنى اللاجدوى ..

وعدت إلى مكتبي أحمل معي « لعنة ميداس » .. النوافذ الفضولية تنقلص وتختفي .

جدران الغرفة تغلظ وترتفع . الأصدقاء يغورون . لا أحد . رعب يعربد في ذرات دخان بليد .. يزحف .. عيناى معلقتان بفجوة في السقف . تضيق . النجوم تدبل وتختفي . ليل ذعر أبدي ينشر شباكه مع عناكب رخوة ولدت قبل أن نولد . لا كوة في السقف . الغرفة تابوت من هلع ووحشة .. عين (بوليفيموس) تطل من كل مكان محمومة ساخرة . تظل تقترّب . ميداس ينّ في ركن ما . صفحات قصتي التي لما تنته تتطاير . تماثيل تعدو . كلمات تقفز من كتب صفر وتختفي . الدوامة خائفة . ميداس لم يعد ينّ . الشاب الذي كان يغازل صديقته في الشرفة ينسل من الدوامة ويسم لي .. سننتصر معاً . أمد يدي لأتحس وجهه . يستحيل فجأة إلى جمجمة صفراء مرعبة الموات . لا مفر . يغمرني إيمان حقيقي بأن لا مفر . وأرفض الأشياء . لا شيء سوى الموت ، من يهرب من التابوت ؟ وأهوي في لامبالاة ضجرة ، حينما لا تقاوم ، تختفي الأشياء التي كنا نقاومها . ميداس لم يعد ينّ ، وأنا لا أشعر بشيء .

• • •

وأخرج من المكتب وأنا أحمل تابوتي وأدور به ، وأنا أبحر في طرقات مدينتي التي استحالت إلى ملل ..

أحياناً تستحيل الأشياء إلى ملل .

أحياناً فقط ! ! . تلك هي المأساة الحقيقية .. (ميداس) اعتاد ضجره ، واستراح إلى سكينه يأسه .. أما نحن .. فلجنة ميداس تنحسر عنا في فترات طويلة ، فنعود ننحت التمثال من جديد ، نروي الموسم الأشقر من جديد .. وفي لحظة وعي ممزقة ، نرفض ولا نبالي من جديد .

ونظل نتأرجح بين سكينه اليأس وعذاب الأمل .. ونظل نحترق في مباحر الفن والحقيقة ولا نقف .. نشارك (بروميثيوس) مصيره في كل لحظة .. ان راحتنا الكبرى هي نفسها هزيمتنا الكبرى .. تلك هي المهزلة ..

دمشق ٦٩/٨/١

ثار عندما اكتشف اسمه !

لما هبطت من الطائرة ، كانت تحمل في عينيها أصدقاء قديمة لصرخة (ميجانا) عند جفن الوادي ، (لأبو الزلف) و (عتابا) ، وليال دافنة موشاة بعبير الياسمين .. لو يضم عتقها المتعب طوق من ياسمين .. يفرقها عبيره في حلم شرقي من زبد عطري أبيض .. دارها ! .. تذكر أنه كانت في الدار شجيرة ياسمين إلى جانب (البحرة) العتيقة ، ومياها المتناثرة بفتح شلال من نزوات راقصة ... وهي اليوم قد عادت تحمل أصدقاء جائعة (لأبو الزلف وعتابا) ، وليال دافنة موشاة بعبير الياسمين .

هكذا رأيتها ، كما رأيناها جميعا بينما هي تهبط سلم الطائرة ، وتحمل حقيبة في يدها ، ثم تستبدل بها طاقة من الورد قدمتها لها مواطنة من بلادي .. إنها مغربة ، عادت لتتحسس الجذع الذي أنبتتها ، لتدس برأسها بين الجلود ، وتشم رائحة التراب ، طعم التراب .. عجيب هو التراب هنا ..

لم تكن وحدها .. كانوا عشرات من الشبان والشابات والكهول . مجموعة إنسانية متباينة السن والمشارب ، جاءت لتسجد لحظة ، لتبحث عن أغنية « ميجانا » ظلت ضالة في جفن واد ، يوم انطلقت من حناجرهم الطفلة منذ أعوام بعيدة .. أحسنا منذ الهلة الاولى أن في وجوههم شبه نداء ، وشبه بوح يجذبنا .. هتافاً أبح ينسل نخجلاً مشتاقاً من مسامهم .. ان فيهم الكثير من كآبة الشرق الرصينة ، من روحانيته البخورية الشفافة ..

وحملنا حقائبهم . كنا اخوة . أحسنا بأنهم من أهل البيت .

أحدهم قال ان اسمه خليل .. ثار وأرغى وأزيد حينما اكتشفت ان اسمه في القائمة هو (شارلز) . قال ان له أمنية في حياته : هي أن يزور قبر صلاح الدين . وتحققت رغبته حينما قضينا اليوم التالي كله في زيارة معالم المدينة الأثرية ...

وهنا اكتشفت أمراً غريباً هو أننا نجهل مدينتنا !! ... لماذا ننكر ؟ ..

* * *

لماذا ننكر ذلك ؟ ...

هل زرت الجامع الاموي وقبر صلاح الدين وكنيسة حنايا والبيمارستان النوري والمدرسة العادلية والقلعة الأثرية ؟ هل تعرف تاريخها وقصتها ؟ هل رأيت متحف دمشق الذي يضم بين جنبهيه أقدم حضارات العالم ؟ ..

هكذا تساءلنا جميعاً (نحن المتطوعين كأدلاء لإخواننا المغتربين) . وفي لحظة صدق وتواضع ، اتضح اننا لا نعرف الكثير عن آثارنا .. هلا طرحنا على نفسك السؤال ذاته ؟ ..

لا تقل لي أنك لا تحب الآثار ، وانك تكره الأشياء الجلادة والمهترئة والميتة ... فالأشياء المهترئة هي أشياء ذات ماض ، ذات حضارة ، مرت عليها ليال وليال ، في كل ليلة ألف نسمة متعبة ، وألف حكاية لاحتضار فراشات ممزقة ، ولفجر شراقة ملتصعة ، وألف بصمة لإنسان .

وآثارنا ليست ميتة .. إنها حية لأن قصتها لم تنته بعد .. قد تُعتبر ميتة إذا قيس بعمر الإنسان الذي يقدر بمئة عام ، لكنها كيان رائع يتحدى مقاييس بشرتنا ... أنها ليست شيئاً جامداً .. إنها عالم متجدد حي . لحجارة المعابد صوت يروي ملاحمها ، ولناورها ظلال تفصح كظلال وجه عاشق .. ولفسيفسائها صدى رنين محب وديع .. لكننا مع ذلك لا نعرفها حق المعرفة ، فما هو السبب ؟؟ ...

إن أول شيء فعله حينما نذهب إلى أية مدينة ، هو أن نزور آثارها ، فلماذا لم نتعرف حتى اليوم على كنوز مدينتنا ؟؟ ..

لا أعتقد أن السبب يرجع إلى عدم احترامنا لها ، فكلنا يقدرها ويشعر — ولو لم يرها — بأن في مدينته ما يستحق الفخر .. أعتقد أن السبب الوحيد هو أنها قرية ، في متناول يدنا !! ... ان قدرتنا على زيارتها أي يوم دون أن نتكبد مشاق السفر تجعلنا باستمرار نهمل الأمر ... لسهولته !! فهي — بوجودها قرية — تبسط نفسها أمام أعيننا ، وتغمرنا بإحساس من التملك المطمئن ، الذي يقود إلى الإهمال ...

* * *

لأنها حكاية الزوجة والصديقة ! .. الزوجة التي كانت رائعة يوم كانت صديقة ،
 يوم كانت شيئاً بعيداً غسقي الغموض ، ثم أصبحت زوجة مدهشة لا يتتقص من
 روعتها الا امتلاكه لها .. فهي لم تعد تثير في النفس إحساساً بالقلق ، وكلنا يحب قلقه كي
 يشعر باللذة حينما يطمئن ، وكلنا يحب الأشياء البعيدة كي يعيش نشوة الركض ونشوة
 التعب ونشوة النصر ..

وآثارنا ، « الزوجة الجميلة » التي لم نعد نحصى مفاتها ، لأننا نمتلكها ، تستحق
 نظرة تفرس وإمعان ..

١٩٦١/٧/٩

العيد والطائر الأخضر

أنا لا أحب العيد .. فالثياب الجديدة لا تبهرني .. والمهدايا وكلمات الاطراء لا تهزني في قليل أو كثير .. أما الحلويات فأنا لا أذوقها إلا في حالة الجوع وأفضل الخبز عادة .. وأما الأهل والأصدقاء فأنا أكره أن يكون عليّ أن أظهر عواطفني نحوهم في مواسم معينة .. وأما الآخرون فإن تفكيرهم لا ينحصر في مدة أيام ثلاثة .. ومظاهر الفرح والضحك أيام العيد تجعلني أنظر إليها برية وتساؤل ، لأنني أعتقد أنه كلما كان الفرح عميقاً وحقيقياً ، كان التعبير عنه أقل تبهرجاً وإفصاحاً . وأنا أحزن في العيد ، اذ يحيل إليّ ان في زوبعة الاحتفال والضحك المبهج نوعاً من أنواع الافتنال والعدوى العاطفية الجماعية ، أكثر مما فيها من أحاسيس فردية صحية .

مرة : أيام كنت طفلة ، سألت أبي وأنا أشرق بغصة الخيبة : « ماذا في العيد حتى يحبه الناس هكذا » .. ؟ وضحكك يومئذ من تحرري الساذج وقال : « يوجد طائر أخضر مذهب ينطلق في العيد من قوس قزح بعيد ، ويحدث الناس حديثاً لم يسمعوا مثله قط ، ويحجب عن أسئلة أكثر الاطفال مشاكسة ، مثلك » .. إذن الطير الاخضر المذهب المسجون في قوس قزح بعيد ، لن ينطلق إلا في العيد .. لأجلي وحدي .. وعشت أعياداً كثيرة ملة .. فأغاني الطائر الاخضر المذهب لم تشرق في نافذتي ..

ومرة ، هربت مع بعض الصديقات في رحلة إلى تلمر .. إلى حيث كان فجر العيد شيئاً صوفياً علوياً مدّش الصفاء والصدق والضياء .. لا ضجيج .. لا مفرقات شريرة .. لا لغظ .. لا قيود .. ولا ثوب جديداً .. لا واجبات وزيارات وكلمات مهياة في قوالب خاصة بالعيد .. لا شيء سوى أنا ، الجزء من (الأنا) الذي يمت إلى السماء بصلة ، أنحش لبراءة الرمل واتساع الافق وصمت الإله الضاج وهمهمات الرياح عند شفاه التماثيل حتى لأخالها تنطق . وانطلقت يومئذ وحدي في درب الأعمدة ، عارية القدمين ، أرفع للإله في كل شيء جميل صلاة النشوة والابتهاال ، وأبحث عن الطير الاخضر

لأجد نفسي الحقيقية . في صدق حكاياه .. أفكر كما يحلو لي ... أخشع لحقيقة انتصار
الإنسانية على الفناء .. فزنوبيا حية تهمهم في مكان ما .. كأني أحس لسع أنفاسها
خلف أذني .. والمجامر في أعلى الأعمدة العتيقة تخشع لتأوهات البخور وتضوع الطيب ..
ما كان أحلى رائحته .. ما كان أبهى شوارع تدمر وهي تفور بحياتها الماضية حينما
تبعث حية ولو لبرهة واحدة في خاطر إنسانة ما .. وتمددت على الرمال بينما ولم
الطائر الاخضر عند آخر عمود في الدرب .. وإذا بحكايات الريح تنسل من منقاره
مفهومة واضحة .. جاء الطائر .. بلا تعازيم من حلوى .. بلا طقوس الثوب الحديد
واللفظ الرشيق .. جاء في قداسة الصمت والغربة ونشوة الحقيقة . وخلف الطائر الاخضر
المذهب كان وجه أبي ييسم عند الافق وكان عيدي الاول ..

دمشق ١٩٦١/٧/١١

يا رأسها الأشقر .. أترجم الحضارة السوداء بالحجارة ؟

دمشق كانت تتململ في أحضان الحر بوداعة رغيف يشوى في التنور حينما خرجت من داري ، وفوجئت بلفحات ساخنة تلسع الخدود والمقل ، وترك الانسان في حالة من الاستسلام المعذب ، والاسترخاء الفكري البليد .. كنت قد قررت الذهاب إلى موعد ما ، لكن شمس الساعة الرابعة ، وتيار الهواء الرطب الذي انسكب على وجهي حينما مررت بباب إحدى دور السينما أغرياني بالدخول إليها دون تردد . لم أقرأ اسم الفيلم ، لكنني اكتفيت بلوحة كتب عليها : « الصالة مجهزة بتكييف للهواء » .

جلست في مقعدي ومددت ساقِي إلى الأمام وبدأت أعد نفسي لاغفاءة شهية .. وأطففت الأنوار ، تولدت الصور فوق الشاشة .. كانت منذ البداية جذابة ومؤثرة ، لم أُم . الفيلم كان يحكي قصة حسناء مكسيكية خلاسية-ماتت أمها الزنجية يوم وضعها .. وبدأت مأساة هذه الحسناء (الملوثة) يوم تزوجت من أميركي « نقي الدم » !! ...

ولما عاد بعروسه إلى أهله ومدينته ، فوجيء بأسلوب الجميع المهيّن في معاداة زواجه .

وتنبهت حواسي وأنا أرقب إنسانين يكافحان رسوبات مجتمع لما يصل بمدينته إلى التحرر من سخافات توارثها . ولذ لي أن أرقب وجوه الناس التي كانت مشدودة إلى الشاشة بدول متمرد واحتجاج حار .. وفجأة .. عقلت نظراتي برأس أشقر وعنق أنيق . كانت على ما يبدو أمريكية أو إنكليزية ، ترقب الفيلم بلا مبالاة مؤسفة أثارت حنفي .. وفي أحد المواقف المؤثرة جداً ، عندما تقف البطلة الملوثة الحسناء بعينها الحضراوين الكئيبتين أمام المحكمة لتدافع عن نفسها ، ولتثبت أنها أخبرت زوجها قبل زواجهما بأنها زنجية الأم ، في هذه اللحظة بالذات ، عندما أحسست باختناق رطب في حاقي ، وعندما كانت سيدة بجاني تمسح دموعها خلسة ، رأيت (الأوروبية ؟) المصون ، تنفجر ضاحكة

بسخرية ! ... لا أدري كيف تماكنت نفسي ، ولم أنهض لأغرس أصابعي في خديها ، ولأدير وجهها* إلى الشاشة بوحشية ملايين الأكف السود الدامية ، ذات (الحضارات) الإنسانية ، التي تقف (المدينات) الفجة ، عاجزة عن فهمها واحترامها .. حضارة ممارسة الانسان لانسانيته . تمنيت أن ألصق على وجهها عيني عريتين لترى بهما ، ولتدرك أن زيادة في الحبيبات الصباغية لا تحيل الانسان حيواناً ، وان حرارة الأعوام التي تحيل الفحم الأسود ماساً قد تكون صهرت أعماقهم السمر فأحالتها إلى مغاور ماسية قوس قزحية الوميض .. لكنني أحسست فجأة أنني أتخامل عليها ، وأريد أن أصب على رأسها الأشقر جام غضبي من مجتمع أصابته لعنة غرور المدينة ..

خرجت من السينما . استقبلني الحر من جديد . أذكر أن أحد (التاكسيات) وقف أمامي وفتح الباب . ارتعيت بداخله دون وعي مني . لم يكده السائق يدير المحرك ليعاود سيره حتى استوقفه صوت ينادي (تاكسي) .. وفوجئت بها تحمل رأسها الأشقر وتقف به أمامي ، دون خوف !! .. وبلطف رجعت أن تقاسمني سيارة الأجرة . ووافقت .

واستدار رأسها الأشقر وسألني عن وجهي . لم أكن قد قررت بعد إلى أين أذهب . قلت لأحدتها بلغتها : « اذهبي أنت أولاً » ، لست على عجل من أمري . « شكرتني بعذوبة لزجة ثم حددت للسائق مكاناً بعيداً جداً في (المزرعة) .

حاولت ألا ألثقت اليها كي أظل مهذبة ، لكنني أحسست أنها كانت تسترق النظر إلى وجهي ، وإلى شعري الأسود جداً وبشرتي السمراء . قال الرأس الأميركي فجأة : انك تتقنين الانكليزية ، هل أنت أجنبية ؟ ..

— ماذا تعتقدن ؟ خمني ...

— اسبانية ؟ .. انك لطيفة جداً على كل حال لأنك قبلت مشاركتي سيارتك .

كانت تحدني بمودة لا حد لها . لم يعد بوسعي أن أغالب رغبتي في مشاركتها : فأجبتها : « أنا ملوثة !! .. أي من أصل أسباني وأمي زنجية !! .. »

هفت ورائي بأشمتزاز مذعور : زنجية !! ...

وشاهدتها ، تلملم طرف ثوبها وتتكوم في ركن السيارة ، كأنها لم تكن قبل لحظات تتحسس سمرتي باعجاب ! . كأنها لم تكن تتودد إلي وتتملقني .. ماذا حدث ؟ .. هل ثار كبرياء المدينة ؟ . الغول الأسطوري الأعمى ، ألم يشع ؟ .. آه يا رأسها الأشقر ،

يا مدنيّة الزجاج الملون ! .. أترجم الحضارة السمراء بالحجارة ؟ ... جرحني تصرفها
كانسانة ، فأصررت على ازعاجها ، واسترسلت أسألها : « ألا يبدو عليّ أنني ملونة ؟ ..
وزنجية ؟ »

قالت بقرف : بلى ! .

لم تحدثني بعد ذلك وإنما جلست في السيارة كأنها وحدها التي تركبها .. كأنه لم يعد لي
وجود ..

استحلت إلى ذبابة .. كل ما فيها كان يوحى بأنني ذبابة .. وأخيراً أمرت السائق
بأن يقف أمام بناء كبير وتخفّزت للتزول ، ثم لانت ملاحظها وهي تهبط ، ونظرت إليّ
بتودد مهين وهي تقول : سأدفع نصف الأجرة ، وتدفعين أنت نصفها الآخر !!

وهنا ، هنا فقط خنفتني قرف حقيقي . كنت طوال الطريق ذبابة ، ثم استعدت
(انسانيّ) بنظرها لحظة الدفع فقط ! ...

ولما تحركت السيارة من جديد ، وغيب الغبار رأسها الأشقر ، تحسست سمرني البنية
بكثير من الاعتزاز ، واستنشقت هواء مدينتي النقي بكثير من النشوة .

دمشق ١٣/١٢/١٩٦١

ما رأي طيور الغابة بهيئتنا الجردية !

كان جماعة من الأصدقاء والصديقات أقسمنا على الانتحار بالسيارة !! ...
كان هذا على الأقل رأي صديقة رفضت أن ترافقنا في رحلتنا فور سماعها لمخططاتها ،
وعلمت قائلة بأننا نجانب نحاول تجريب طريقة مبتكرة أرسقراطية للانتحار ، وذلك
باستخدام سيارة فاخرة ، عوضاً عن « حبل غسيل » أو سم الفئران .. وهكذا كان ...
طريق الصحراء بين تدمر وحمص شاق ومرهق .. لكن عناق ذرات الظلمة والنور
ساعة انبلاج الفجر يرسم صورة حلوة لحقيقة الحب .. أبدأ يغازل الليل النهار ويلاحقه ..
لا يسأمان هواهما ، لأن شفاه الضياء ما تكاد تلامس شفاه الظلمة حتى تدوب فيها
وتتلاشى . تخلفه حلالة الوهم والشوق .. إنه الحب الحقيقي لأنه المستحيل !! ..

وتدمر ... لم تلح من بعيد كأكثر المدن ، وإنما انبثقت فجأة في كف الصحراء ،
كانها رؤيا شرقية انحسرت عنها الرمال ساعة وطننا أحد المنحنيات ... ووجدتها جميلة
كسراب .. حزينة ومهزوزة كأسطورة ...

ولما غرقت شمسها في المعبد الأسمر ، وفاضت الظلمة من حوامل المشاعر المطفاة
منذ أمد طويل .. أدركت أن الليل في تدمر أجمل من ليل أي مكان آخر عرفته .. ظلال
الأعمدة تتلوى ، كلما سقط عليها نور سيارة تهيم بين الرمال .. وهسهسات الريح في
المقابر البيض ، تروي لذهولنا حكايا غامضة لم تمسها شفة .. يا لخلود الموت وكبرياء
الصمت وهذيان الصمت .. يا للذرات الرمال ونبضها واحتجاجها وشوقها .. يا ليل
تدمر .. يا عجيبة طيب ورؤى وتهاويل خلفناها وراعنا لننتقل في سباق محموم مع الشمس
إلى غابة « الفرلق » .. ولنكسب السباق ..

تدحرجنا من السيارة بين الموت وما يشبه الحياة . السائق ظل ملتصقاً بمقعده كأنما

أضحى المقود مجرد امتداد (بلاستيكي) لعظام يديه .. غابة الفترق عالم هدوء رصين ،
يسخر من متاعبنا المعششة في (دهايز خواطرنا الحضارية) ، والتي كانت (تنعب) بين
فترة وأخرى ..

بداية ضخامة الأشجار ، تُشعرنا بالضآلة .. بوخزات مبهمة ساخرة .. بأحداق
مسحورة تطل من غيمات معلقة عند أهذاب الغابة ، تضحك من ثيابنا ومجاملاتنا ..

والطيور في الغابة مدهشة .. إنها جريئة ، اقتربت من صديق لنا وأخذت تحديق في
بندقيته بما يشبه اللامبالاة .. أحسست أن لها شخصية خاصة بها ، كثيرة الاعتزاز . لم يكن
في أعينها أية رواسب من هباب مصنع ، أو ذعر من زعيق حافلة .. فظلت براءة
متحدية ، جريئة ، كالحقيقة ، شفافة كالصفاء .. وظلت أقدامها خالية من دمايل ،
تحلقها وقفات مرهقات على أشربة الكهرباء في المدينة ..

سألني إحدى الصديقات : ما رأيك بهذه الطيور ؟

وأردت أن أجيها .. لكن اتساعاً عجبياً وعمقاً مرعب الأغوار في نشيد الغاب
جعلني أصمت فجأة ، أشعر بالضآلة ، بتواضع للذي يشدني إلى عيني حصان كان يعبر
الغاب ، وإلى فراشة أصرت على الوقوف فوق صدري ، وإلى الطيور الكبيرة وفوضولها
الذي ينمنا هي ترقب صديقاً لنا اتحنى أحد الأركان وغطى وجهه بالصابون استعداداً
لحلاقة ذقنه ..

ما رأيي بالطيور ؟ ولماذا رأيي أنا بالذات ؟ بل ما رأي هذه الطيور فينا ؟ .. أنا هنا
في الغاب قد فقدت امتيازاتي التي تمنحني إياها لمعة حدائي ، ورصفة شعري المصفف
وشهادتي المعلقة فوق البيانو ... لم يبق لي ، ما يمنحني الحق هنا ، في التحديق والنقد
والتكبر وفرض الرأي ، أكثر مما يعطيها .. لم يبق مني هنا .. إلا (أنا) ...

ترى ما رأي الطيور فينا ؟ في صديقنا الذي ما زال ينحت ريش خديه بأداة حادة
يمكن أن تقتله لو ... ما رأيها في تحلتي أكثرنا حول « صحيفة » تثير نقوشها السود في
نفوسنا السعادة أو الغضب أو النقاش الحاد ؟ .. ما رأيها في تغامزنا وريائنا ، والسرراويل
التي نسكب أعضاءنا فيها ؟ ألا نجد شكلنا فيها ممجوجاً كجرادات أفلتت من قيود الطبيعة
وظلت تنمو ؟ .. هل كان يضحكها أسلوبنا في الأكل واستعمالنا (لساقينا الأماميتين) مع

أفواهنا بينما هي تلتقط الحب بمنقارها بأناقة ونظافة ؟ .. تراها تحترمننا ؟ تخافنا ؟
ترثي لنا ؟

الرحلة انتهت . لكن أعين طيور غابة « الفرق » تلاحقني كلما كذبت ، وكلما
سخرت من إنسان حتى ولو كان يستحق السخرية ، وكلما منحت نفسي حق ابداء الرأي
بالآخرين ، أو رأيتهم يمنحون أنفسهم هذا الحق ، وكلما رأيت صديقاً يتلون ، أو
يزيف ذاته الهلامية التي تتخذ بسرعة شكل الوسط المحيط بها ولونه .. ولا أملك إلا أن
أتساءل بحرقه : لماذا يحنق نشيد الغاب عند مراكز جمارك المدينة ؟ لماذا يتمزق عند
قدمي أول شرطي سير ينظم الدخول إليها ؟ .

احتجاج تلميذة على أساليب التعليم المضجرة !

كان سلوكي في المدرسة ، شبيهاً بسلوك كائن
نصف متوحش ، يمضي في الطريق المألوفة كي
يحصل على طعامه ، لكنه ينسحب هارباً به إلى
وكبره ، ليمارس افتراس زاده من العلم بأسلوبه
الخاص .

- ١ . ملن -

دمشق ٦١/١/١

شاعر يزور مع الليل (١) « تشوسر » وأنا

الظلمة تغفو في موقد دارنا ، وصرير قلبي على الورق يחדش سكينه الصمت ..
النور الباهت ينعكس على الصفحات ويرقص متعباً على جيبيني ..

رميت القلم فجأة ، وتنهدت بارتياح وأنا أغمض عيني .. الحمد لله .. انتهى المقال
الذي كنت أعدّه عن الشاعر « تشوسر » لإحدى الصحف .. الموضوع سمج فعلاً ،
وطريقة العرض مدرسية كلاسيكية لا جاذبية فيها .. ثم ان مصادر بحثي لم تعد كتب
النقد المعروفة التي لا تخلو من بعض التشويه للحقائق .. وعلى أية حال فالشاعر المرحوم
تشوسر لا يستطيع محاسبي على ما كتبت بعد أن توفي سنة ١٤٠٠ ..

وإذا احتج النقاد على بعض آرائي قلت لهم : مذهب جديد !! .. وإذا بالغوا قلت
لهم الحقيقة : هكذا درّسوني في الصف ا ...

سأنهض الآن لأنام .. وفي الأسابيع المقبلة سأكتب لقراء الصحيفة عن بايرون
وكيتس وبراونينغ وغيرهم من أحبائي الشعراء ..

وبدأت أتناهب .. وفجأة .. جمدت .. كان الباب يفتح ببطء شديد .. وصريره
البارد يملؤني ذعراً ... وبدأت أفكر بسرعة .. لا أحد من أهل الدار يمرّو على دخول
غرفة مكتبي .. أخي يفضل الذهاب في رحلة إلى القطب على المغامرة بالجلوس بين
أكداس كتبي المتناثرة بغوضى سيرك يوم الرحيل ! ..

من يمكن أن يكون زائري ؟

ورأيت منتصباً عند الباب يتأهب للدخول .. تلتنع عيناه السوداوان ببريق عجيب

• الشاعر جيوغري تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠) Geoffrey Chaucer

لا تمت إلى عالما بصلة .. وكان أغرب ما فيه ثيابه .. ثياب القرن الرابع عشر .. وانسلت قدما بسكون فوق السجادة دون أن تغوصا قيد أنملة في وبرها الطويل . حتى خيل إلي أنه لا يمسيها ؛ وإنما يطير فوقها .. أو أنه بلا « وزن » فيزيائي .. كالأرواح ! ...

ولما استعدت السيطرة على وتر أو وترين من حبال الصوتية سألته : من أنت ؟ من أين دخلت ؟ وما هذه الثياب التي تبدو فيها كالمهرج ؟

أجابني بلهجة انكليزية عذبة . ولكنها صعبة الفهم :

— لست مهرجاً أيتها البلهاء .. أنا تشوسر أبو الشعر الانكليزي .. وثيابي أبدع ما ارتددي في قصور جنوه وفلورنسا ..

— من أين أتيت ؟

— من عالم ما وراء الضباب حيث « يوتوبيا » الفنانين .

— ما الذي جاء بك إلى غرفتي أيها الشبح الثائر ؟

— أنت أيتها الشقية . أما يكفيني ما لقيناه من زملائك الذين تناولوا أشعارنا وحياتنا بالدرس والشرح ؟ .. انكم تهررون لنا أخطاء نفخر بأنها من صنعنا .. وتنسبون لنا فضائل نخجل منها .. لقد طفح الكيل ..

— وما ذنبي أنا ؟

— أنت القطرة الأخيرة التي فاضت بها الكأس . ثم انك تريدن الكتابة عن المشاهير أمثال بايرون وشيلي .. مع أن اليوتوبيا تعج بالعظماء غير المشاهير .. إن آثارهم الخالدة بين يديك .. قد لا تلفت الأنظار لأن كاتبها لم يكن زير نساء كبايرون .. ولكنها بتواضعها الشامخ ، كالبنفسجة التي لا ينتقص من جمال غيرها أنها تلتصق بخدها إلى خد الراب الندي والتي شبه بها الشاعر « ورد سورث » حبيبته « لوسي » حين قال :

« بنفسجة .. قرية من حجر مطحلب ..

نصف مخفية عن الأعين

جميلة كنجم مفردة

حينما تلتمع وحيدة في ظلمة السماء » ..

وعدت أسأله بعناد :

— تعني أن الفرق بينهم وبين بايرون وشيلي كالفرق بين الجاحظ وأبو حيان التوحيدي ؟ .. كتب الأول قد طبقت شهرتها الآفاق ، وكتب الثاني بحاجة إلى من ينكب على نثرها الفني المقتضب بالدرس والتمحيص ؟

— أجل ! .. هذا ما أعنيه تقريباً ...

واقرب مني .. تناول مقالي الذي سهرت الليل أنخلت في كتابته .. وأخفاه في صدره .

وأثار دهشتي أكثر من غضبي !

— لماذا (صادرت) ولم تنزقه ؟ ..

— الأرواح تكره التمزيق والتحطيم .. ثم اننا نريد الاحتفاظ به في الملف الخاص بك ! ..

— ماذا تريد مني ؟

— أريد أن تدعينا في سلام .. كفانا ما لقينا من النقد .. امتنعي عن استغابتنا في هذه الصحيفة .. وابحثي عن مصدر رزق آخر غيرنا ..

وقررت دون أن أفكر : أما يكنيني ما ألقاه من الأدباء — الأحياء ، حتى أدخل في معركة ثانية مع ... الأموات ؟ ..

حسناً .. لن أكتب شيئاً .

ثم فكرت ، فقررت شيئاً آخر : ماذا لو اعتذرت وبيئت لهم السبب ، وحدثتهم عن لقائي بالأشباح !! .. لن يصدقني أحد ! ..

وصممت على أن أصمد .. واجهته بنظرة جمدها الرعب فبدت هادئة ، وسألته متحدية :

— إنني مصرة على الكتابة عنكم ..

وتخاذلت نظراته فجأة وتبددت قسوتها .. فأدركت أن الأدباء الأموات قد نسوا المساومة وقال :

— ما دمت مصرة أيتها البائسة الأرضية ، فلا مناص من أن يحضر شبح أحدنا إليك كلما أردت الكتابة عنه ، وبذلك تستطيعين استجوابنا ، ونقل أحاديثنا إلى القراء ،

دون الرجوع إلى كتبك المهرثة المغلوطة ... سنجيبك عن أكثر أسئلتك وإنما بشرط ..
— ما هو هذا الشرط ؟ ..

— ألا تكتبني حرفاً بما قرأته في الصفحات الصفر .. سيسأمك القراء وتسامين نفسك ..
اكتبي الحديث الحلي الذي يدور بينك وبين الشاعر الذي يزورك مع الليل ، وانقله إلى
القراء بأمانة وصدق .. ولو فوت عليك ذلك فرصة استعراض عضلاتك الثقافية
ومعلوماتك المدرسية يا شاطرة ! ..

— حسناً .. سأبدأ بك الليلة .. وأبعث لي في الأسبوع التالي بشيخ ميلتون .
— لا .. سأبعث لك بمن أشاء ! .. ولكن يجب أن تتعادي الأدباء الأشباح ..
— ليسوا أكثر شراً من الأدباء « الطازجين » . على أية حال .. سأبدأ بك الآن ..
استعد ..

ويدا لي أنه لم يسمعي .. انسلت نظراته خلال النافذة إلى آبار السواد في السماء
حيث كان شهاب يهوي .. يحترق .. والظلام يتلغ رماده وتأوهات .. وهتف مدعوراً :
— لأنهم يستدعونني ويجب أن أعود حالاً .. انتظريني في الأسبوع المقبل ..
وقبل أن أجيب ، فتح النافذة بلهفة ، وخطا منها في الفضاء ، وطوته أمواج
الظلام ..

ومضى زائري مع الليل إلى عالم يولد فيه فجر كل لحظة .. وترك لي وعداً بالعودة
في الأسبوع المقبل ..

تري هل يصدق وعده ؟ .. انتظروا معي ..

دمشق ١٩٦١/١/٨

شاعر يزور مع الليل (٢) «بايرون» يفاجئني

أطفأت الأنوار ، وجلست بانتظار شبح «شوسر» الذي وعدني بالمجيء . مكتبي يسبح في نور شمري مرتجف ، تبعته النار التي تحتضر في الموقد أمامي . الظلال ترقص في الزوايا ، وتملأني برعدة لليلة ، فيها من رعشة ساحر هندي ينادي الأرواح الشاردة مع نسيمات الليل الباردة .. وظلت أتساءل « ترى هل يصدق وعد الأشباح ؟ » حتى رأيت الباب يفتح ببطء كالمرّة السابقة .. وانسلت نظراتي تتحسس الشبح الداخل ، وكانت مفاجأة مذهلة ! ..

لم يكن شيخاً متعباً في ثياب القرن الرابع عشر ! ..
كان شاباً رائع الجمال مدهش الأناقة .. بقدمه عرج واضح وهو يتزلق فوق السجادة دون أن يمسّها بأخمص قدميه .
وبدأت أفكر بسرعة .. شاب رائع .. أعرج .. وشاعر . من يمكن أن يكون
سوى ..

— أجل ، أنا بايرون ! .
هكذا قال فجأة وهو يجلس على المقعد أمامي ، وكأنه كان يقرأ أفكاره ..
وهتفت مذعورة :
— بايرون ! لكنني لم أستهلك .. لماذا جئت ؟
— رأيت شوسر يتأهب للحضور .. ولما أدركت أنك «صحفية» لا صحفي غلبتني

• الشاعر جورج بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) Lord George Byron

« عاداتي الأرضية » .. وجئت .. تجاهلت نظراته المتفرسة وسألته : ما دمت قد جئت .
تفضل . حدثني عن أيامك الأرضية .

— ولدت لورداً في أسرة ممزقة .. أبي منفصل عن أمي التي عبتاً تلاحقه بجبها ..
ولما أصبحت يافعة ، اكتشفت العاهة التي خلفوها في قدمي بإهمالهم . تأملت وأحببت .
أحرقته واحترقت .. أنا « دون جوان » الشاعر المشرد .. إن قصيدتي « دون جوان »
هي أعظم ما كتبت ، لأنها بالإضافة إلى ما حوت من نقد اجتماعي لاذع السخرية ،
تروي قصة حياتي .. لنقل قصة وجه من وجوها .

— ما هي قصة « دون جوان » ؟

— « تجدين .. آثار تفكير طويل ، ودموع جافة تركت بعد انحسارها أخدوداً قاحلاً »
عميقاً .. نبشت عنه الأعوام المسافرة ..

ذرات رمال الحياة الأخيرة

وأضحى عارياً .. لا تلوح فيه زهرة ! »

— ما هي شخصية « دون جوان » التي تقول انك سكبت نفسك فيها ؟

— « هو .. هو ذلك الذي شاخ في عالم العذاب بالتجارب .. لا بالأعوام .. وسبر
أغوار الحياة فما من أعجوبة في الأرض تستوقفه .

لا الحب ولا الأسمى .. لا الشهرة ولا الطموح » ..

— هل أحببت النساء ؟

— أجل .. أحببتهن بطريقتي الخاصة ! .. وغنيت لمن أعذب الألمان .. اسمعي :

« لا نزهة لنا بعد اليوم ..

حين يغرق الليل في الصمت والحرقة ..

مع أن قلوبنا ما زالت عاشقة ..

وأشعة القمر ما زالت عذبة » ..

— انك كاذب ! .. ما أحببت قط سوى نفسك يا بايرون .. أحببت ظلك في عيون

النساء .. وأحببت المرأة لأنها ، مجبها لك ، تشعر بك بسطوتك ، وسحرك الذي لا يقاوم ..

أحببت المرأة كمرآة لجمالك اللامتناهي .. وأحببت ذاتك حتى أنك اخترت لنفسك ما
أيراه عصرك «أشرف ميتة» .. لا تدعي أنك انضمت إلى اليونان في نضالها ضد السلطة
العثمانية من أجل عقيدة الحرية .. لقد ذهبت لأنك كنت تريد أن تموت .. لأنك سئمت
وجودك .. ولأنك تريد أن تموت بوسيلة تليق بإنسان (رائع) مثلك ، ميتة يصفى لها عصرك
وتدمع لها عيون الفتيات ..

— أنك تظلميني ..

— لم أظلمك أبداً .. ألم تقل :

« لماذا تعيش ان كنت قد سئمت شبابك الفارغ ؟

أرض الموت الكريم .. تلوح هناك ..

لإذهب إلى الميدان .. وودع أنفاسك ..

ابحث عن قبر جندي ..

انه أنسب الأشياء لك ..

ثم تلفت حولك .. واختار الأرض التي تريد ، واسترح « !

— وماذا تعرفين أيضاً عن حيي لنفسي ؟

— أعرف الكثير .. لقد انتقمتَ لقدمك التي شوتهها امرأة من نساء العالم جميعاً .. ثم

تمنيت لنفسك المعبودة الخلود .. فأحببت الطبيعة وتمنيت أن تتمتع بها لتخلد خلودها ..

— هذا غير صحيح تماماً وغير خاطيء تماماً ... ككل شيء ! ..

— ألم تقل :

« حيي للإنسان ليس بقليل

ولكن حيي للطبيعة أكبر ...

وفي لقائي معها ، أحاول أن أنسل وأنغرر ...

من كل ما يمكن أن أكونه ..

وما كنته ذات مرة ...

لأمتزج بالكون .. ولأحس ما لا يمكن التعبير عنه أبداً ..

ولا يمكن أن يخفى كله مع ذلك ! » ...

— أيتها الحمقاء .. اسمعي سبباً إضافياً لإعجابي بالطبيعة والبحر ولا تكوني كسائر
النقاد ، لديهم أبيض وأسود فقط ، ويعجزون عن رؤية تموجات النفس البشرية في ذات
الفنان :

« تدحرج أيتها المحيط قاتم الزرقة ..

تدحرج ...

عشرة آلاف أسطول يتزلق فوق صفحتك انزلاقاً ...

عبثاً ملأ الإنسان أرضه بالحكام ...

لكن سيطرته توقفت عند الشاطئ ...

وفوق سهول الماء الشاسعة ..

فإن كل حطام يطفو على صفحتها هو من صنعها هي

هنا ...

لا يتبقى أي أثر لنهب الإنسان ...

لا يتبقى سواه لبرهة وجيزة ..

ريثما يغوص كقطرة مطر ... ويهوي في أعماقك يا بحر مع تأوهات المختلطة
بالفقاعات .. بلا قبر ..

بلا جرس في كنيسة .. بلا كفن .. وبلا هوية ! »

— حسناً . اغفر لي « وحدانية الرؤيا النقدية » ، وقل لي هل كنت سعيداً بزواجك ؟

— « الأمل .. الخوف ، الغيرة والمتاعب ...

الألم الدقيق .. وحرارة الحب ..

لم أذقها جميعاً .. وإن كنت أرتدي في أصبعي سلاسلها ..

— انتظر لحظة .. لدي سؤال أخير ..

لكنه لم ينتظر .. كان رماد الموقد قد امتص بقايا اللهب ، ودفنها في أحشائه ..
وهوى شهاب في فضاء الليل وابتلعت الظلمة تأوهات ورماده ..
ونهض بايرون وانسل من الغرفة وهو يهيمس بعذوبة فائقة :
« عندما افترقنا في صمت ودموع
بقلبين نصف معطين .. لتفترق أعواماً ...
شحب خدك وبردت قبلتك أكثر
وتنبأت تلك الساعة .. بعد أي اليوم »
واختفى .. وظلت الجدران تردد بعده :
« إذا ما التقيت بك
بعد أعوام طويلة ..
ترى كيف أحييك ؟
في صمت ودموع » ..
مضى بايرون .. وانسلت إلى فراشي في صمت ودموع .

دمشق ١٩٦١/١/١٣

شاعر يزور مع الليل (٣)
« دون » « دونما امرأة واحدة وفيه »

أي روح لأي شاعر ضائع سيحمل الليل إليّ ؟
هذا السؤال كان يرتسم في طبقات الستائر ، ويختلط مع وهج نار الموقد فيزداد رهبة
وغموضاً .. لم يطل انتظار ، فقد انسل شبح زائري فجأة واستقر أمامي بلا تحية ..
لم يتأمل وجهي بفضول كما فعل بايرون من قبله .. لم ينحن على يدي ويقبلها بركة
على طريقة الشاعر الأعرج الغزل .. وتجاهل فضولي واستغرابي وانطلق منشداً :
« إذهب وامسك بنجم يهوي ..
واحصل على جذور السحر الوهمية ...
أخبرني إلى أين تمضي الأعوام الراحلة ...
ومن شق قدم الشيطان إلى شطرين
علمني الإنصات لأغاني عرائس البحر ...
وإبعاد لسعات الحسد عن أعماقي ..
إرحل عشرة آلاف يوم وليلة ..
حتى يرسل الزمن آلاف شعيراته الثلجية فوق رأسك ...
وعندما تعود .. ستخبرني بالعجائب التي رأيت ...
وستؤكّد لي حين تعود ..

• الشاعر جون دون (١٥٧٢ - ١٦٣١) John Donne

انه ليس في العالم كله .. امرأة واحدة وفيه وجميلة »

— لا بد من أن تجد ولو امرأة واحدة وفيه وجميلة ...

— « إذا وجدت واحدة .. فاخبرني ..

الرحلة إليها ممتعة ممتعة ...

لا .. لا تخبرني فلن أذهب إليها ...

مع أنها قد تكون جاري الحساء ..

فربما تصلني رسالتك ...

وتخبرني بوجودها

تكون قد خانتك مع اثنين أو ثلاثة ! »

وأدرت وحدي أنه الشاعر (دون) علو المرأة .. الذي عاش في عصر الملكة
اليزابيث بين عامي ١٥٧٣ - ١٦٣١ وإن كان شعره ، لا يحمل خصائص هذه الفترة ولا
يمت إليها بصلة ...

ولم أشعر بغضب المرأة لبنات جنسها ، وإنما بغضب فكري ضد التعميم الأحق ...
أردت أن أقول له أن بين الرجال من ليس وفيّاً أيضاً ، كما بين النساء ، لكنني سمعت
صوتي يقول : لماذا جئت إليها الوقع ما دمت تكره النساء ؟ .. (لقد غلبني ضعفي الأرضي
اللعين وغضبت !)

— جئت أطلب منك أن تتركينا نموت بسلام .. لقد أثرت الخلافات في كهوف
الأدباء زجاجية الجدران .. بايرون أمضى أسبوعه الماضي يعني :

« عندما افترقنا ،

في صمت وسكون ...

بقليين نصف محطمين :

لتفرق دهوراً ...

شحب خلدك وبرد ...

وبردت قبلتك أكثر ..

وتشوسر أمضى أوقاته كلها في صبغ شعره المستعار ، وتلميعه ، وكى أكمام قميصه المنشأة ، التي كنت سترينها لو لم يسبقه بايرون إليك وأسبقه أنا !! ...

— لماذا جئت إن كنت تكره المرأة ؟

— جئت لأقول لك انك باردة وعديمة الاحساس ..

— قد يكون هذا حقيقياً ولكنه لا يبرر حضورك . ثم إن (الباردة) ضرورة لكل من يعيش في (الوسط الأدبي) هذه الأيام

— وانك سليطة اللسان ..

— هذه أفضل تركية لي عند مكتب الصحيفة التي أعمل بها !

— وانك سببت مشاكل لا حصر لها في (البيوتوبيا) زجاجية الجدران ..

— أنتم الذين تتنازعون وتتنافسون على الحضور إلي .. ومع ذلك يتبارى كل منكم في شتمني أمام الآخر وادعاء عدم اهتمامه بي .. هكذا أنتم .. أبدأ أيها الشعراء والأدباء .. وما أشبه اللبلة بالبارحة ! ..

— ولكنني كما تعلمين أكره جنسكم وجئت فقط ..

وقاطعته صارخة : أنت تكره المرأة ؟ ألم تقل :

« حررني .. فكي أو حطمي قيودي ...

شدني إليك .. اسجينني ..

فلن أكون حراً أبداً

إلا إذا استعبدني !!

لا .. ولا فاضلاً

إلا إذا اغتصبني !! »

وانفجر ضاحكاً فجأة وقال ساخراً :

— هذه الأبيات ليست غزلاً قيل في حسناء كما خيل إليك وللكتيرين ..

وإنما هي قصيدة من شعري الصوفي .. وأنا في هذه الأبيات أستعطف « الثالث
المقدس » كي يحررني من قيود الحياة ويضمني إليه لأن حربي المطلقة تكمن في عبودي
للخالق .. هذا شعر صوفي أيتها الحمقاء ! ...

وأدرت أنني أخطأت حقاً .. بينما تابع حديثه :

— إنك لم تسألني إلا عن الحب .. لم يخطر لك الاستفهام عن أسلوب وخصائص
الشعرية .. كم أنت محدودة التفكير .. إنك كبنات جنسك جيعاً .. لاهم كنّ في الحياة
إلا الحب ! ..

وخيل إليّ أنني أمام ناقد شرس القسوة ، يتغذى ظلمه لي بسعة علمه وذكائه ..

وسألته بصوت منقطع كتمتات تلميذة كسول تتلو جدول الضرب :

— حدثني عن مدرستك الشعرية وخصائصها ...

— أنا ناثر .. ناثر على المدرسة الشعرية الواهية ، التي سادت في عصر الملكة اليزابيث .
ناثر على صنعتهم اللغوية الفارغة ، وحلقتهم الجوفاء الرنانة ، ونعومتهم الزجة في
الأفكار والتعبير ...

— وشعرك نسيج رائع من الذكاء والتركيز ..

— لم أستعمل العبارات المتعارف على أنها شاعرية .. لا ، ولا الخواطر والموضوعات
التقليدية .. بعثري كلماتي بتجديها عادية وعارية .. الشعر ينبع من الفكر لا من اللفظة .

— أظنك كتبت في البداية شعراً غنائياً غزلياً (ليريك) ، ثم انطلقت في أجواء
« ما وراء الطبيعة » وأجواء الدين .. والوعظ الأصيل إنسانياً ...

— هذا صحيح بطريقة ما ...

— ولهذا السبب سميت مدرستك (ميتافيزيكل سكول) أي مدرسة (ما وراء الطبيعة) .

— تسميات النقاد ليست من شأني . لكنني أقر بأننا كنا ثورة على شعر العصور

الوسطى ...

أجل ! إننا تميز بغرابة أفكارنا ووسائل تعبيرنا عنها .. الأمر الذي لم يكن موجوداً
في الشعر السطحي المترف لعصر الملكة إليزابيث المترف .. شعرهم يفتقر إلى الصلابة
والمثانة والصدق ، وكبرياء الرصانة ، والاتزان ... والتكشف البديعي ، والثراء الفكري
والروحي .

— وأين تكمن الشاعرية في مدرستك الخاصة ؟

— لأنها لا تكمن في شكل الكلمة وإنما في مضمونها .. في الرعدة التي يعيها المعنى .. ليست ألوان الحرف المبهرج هي التي تهزك عندنا وإنما هي ظلال الحرف .. بعثري كلماتنا تجديها عادية عارية .. العبرة في الروح التي ترصفها والأجواء التي توحى بها ، شعر جديد لرؤيا جديدة .. هذا هو شعري .

— هذا مفهوم حديث جداً للشعر وأجده بوضوح عند الشاعر الأميركي والت ويتمان .. لقد سبقتم عصركم بعدة قرون ...
— وهذا سبب عدم إعجاب الجماهير بنا في عصرنا ... ولكن النقاد خلدونا بعد موتنا .

— حديثك طلي ... أشعر بأنني أميل إلى سماعك .

— هكذا المرأة دائماً .. تعجب بالرجل الذي لا يعيرها أدنى اهتمام ...

قال هذه العبارة بينما انطلقت نظراته تعبت بلامع وجهي وتحسستها — باهتمام — واستدركت غاضبة :

— لست معجبة بك كرجل — أعني كشبح — وإنما كشاعر ..

وتجاهل ثورتي ، وتابع بهدوء قائلاً : في المرة القادمة سأرسل اليك بعض مبدي مدرستي أمثال « هيريك » و « هيريت » .. و ...

— إذا لم تحصل مبارزة ويشرفني بالحضور سواهما .. من يدري .. قد يحضر شبح من النوع الذي يتلف على أن يثنى — لواعج — كرهه مثلك .. لم أعد أصدق وعودكم أيها الأدباء .. الأشياء ..

وقبل أن يجيب .. هوى شهاب في فضاء الليل ، ابتلعت الظلمة تأوهات ورماده ...
ومضى شبح ضيفي معه في صمت وسكون ...
ومضيت إلى فراشي في صمت وسكون ..

شاعر يزور مع الليل (٤) « بوب »* بين اللاأخلاقية .. والأخلاقية

لم ترقص الستائر بهلع .. لم يرتعد اللهب في الموقد .. لم يهو الشهاب في الظلمة
باستسلام متعب .. لم يصدق وعد الأشباح هذه المرة !

بدأت ذرات الفجر تنفض عن نفسها الغبار الرمادي ، وتوهج فوق منضادتي
بتكاسل يثير النعاس .. لم يبق أمامي إلا أن أعود إلى الكتاب الأصفر السميك ..

وضعت أمامي على المنضدة ، وأخذت أقلب صفحاته ، ورائحة بخور قديم تفوح من
الحروف ، وتغمرنني بنشوة المعرفة ..

توقفت نظراتي عند صفحة توجها اسم « الكسندر بوب » الناقد والشاعر الكبير ،
الذي تقاسم مع درايدن و « جونسون » مسؤولية النقد وتوجيه الأدب في القرن الثامن
عشر .. كنت قد وجدت أن أجمل أشعار بوب ، هي التي ضمنها نقده الاجتماعي
الساحر ، ولكن هذه الأبيات لم تجلب نظري هذه المرة .. كان الذي أثار اهتمامي قصيدته
المشهورة « مقالة في النقد » التي تحدد معالم شخصية « الناقد » وتوضح رسالته الحقيقية ..

كتبها وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وطبع عام ١٧١١ ، وابتغى منها
أن يطبق على الناقد ، ما يطبق على الأديب من مقاييس كلاسيكية .. لذلك فإن بوب رائد
المدرسة « النيوكلاسيكية » في النقد ..

ومعظم الآراء التي تضمنتها مقالته ، هي حصيلة آراء أرسطو ولونجا مينوس
وهوراس وكويتيليان وفيدا ..

والجديد في هذه القصيدة ، أنها تشترط في الناقد الأصيل أن يكون متمعاً بالنوعية

• الشاعر والناقد ألكسندر بوب (١٦٨٨ - ١٧٤٤) Alexander Pope

الأخلاقية والفكرية نفسها التي طالب بها الأقدمون الشاعر . أي أن « بوب » يشترط في الناقد ، أن يملك « الموهبة » والأصالة إلى جانب المعرفة والدكاء ، والجهد الشخصي .. وهذه « الموهبة » البدائية ليست حصيلة المراتم والتجربة ، وإنما هي بالمفهوم الحديث : استعداد طبيعي .. وفي هذا يجده يقول :

« كما أن الموهبة الأصيلة عند الشعراء نادرة ..

فاللوق الأصيل نادر عند النقاد ..

والناقد كالشاعر ، يستمد الإلهام من السماء ..

فالنقاد ولنا لينقلوا ..

كما ولد الشعراء ليكتبوا » .

ولا شك أن عبارة « يستمد الإلهام من السماء » تستوقف أنظار القارئ العصري .. ولكن الدهشة تزول ، عندما نتذكر أن بوب تلميذ مخلص « للمدرسة الأفلاطونية » ، التي تؤمن بأن الشاعر يكون واقعاً تحت سيطرة أحد الآلهة كلما نطق شعراً .. (روح النظرية هي أن للشاعر موهبة إضافية وليس أيّاً كان) .

وأنا هنا لن أعرض لزحمة الآراء المناهضة لهذه النظرية ، أو المؤيدة لها ، لكن بوب أراد منها مفهومها العصري دون أن ينبذ جوهرها التراثي .. أي أنه اشترط أن يتوافر في الناقد عنصر (مبهم) لا يد له في خلقه ، وإن كان قادراً على تنميته وحسن استغلاله .. هذا العنصر هو اللوق الرفيع ، وهو « شرط لازم وغير كاف » .. وإنما يجب أن يرافقه العلم .. ماذا يعني بوب بالعلم ؟ اسمعه معي يقول أبياته المشهورة في أنصاف المتعلمين من النقاد :

« قليل من العلم هو أمر خطير !

اشرب حتى الثمالة

أو ، لا تقرب من يناييع المعرفة !! ...

لأن الجرعات الخفيفة منها تسكر العقل ..

والجرعات العميقة تعيد لك صوابك !... »

ولكن بوب لا يقنع في أن يكون النواقة « فأر مكتبه » كي يصبح ناقداً ، وإنما يطلب منه أن يُلِّمَ "إلماً" تماماً بظروف الأديب الذي ينقده :

« في دراستك لأي أديب قديم أو حديث ..

اعرف موضوعه .. وجهة نظره في كل صفحة ..

ديانته ، موطنه ، عبقريات عصره ..

وبدون هذه العناصر أمام عينيك ..

قد يحق لك أن تخمن ، لا أن تنقد ! »

ثم إن الناقد ، يجب أن يتمتع بما يشبه الحاسة السادسة ، أو ما أود تسميته « بالرادار الأدبي » لأن :

« الأدب كالموسيقى .. في كل منهما ..

جمال لا يحتويه اسم

ولا ترشد إليه قاعدة

ولا يمكن أن تلتقطه ، سوى أذن أصيلة

والناقد الأصيل إلى جانب هذا كله ،

سعيد بأنه يعلم ، وليس فخوراً بمعرفته ..

مثقف بالرغم من تواضعه .

ومتواضع بالرغم من طيب منبته ..

في جرأته اعتدال ، وفي قسوته إنسانية ..

يوضح لصديقه أخطائه ببساطة ...

ويعدح عدوه بكل سرور » ...

ومن المزايا الخطرة في النقد ، أن يضع الناقد بين الشعر والأدب والنقد ، وهو يقسو على أولئك الضائعين بقوله :

« هنالك بعض الذين ينقدون بأسوأ مما يكتبون ! ...

بدأوا كأذكياء ، وقبلناهم كشعراء ...

ثم استحالوا الى نقاد ! ..

وأثبتوا أخيراً بوضوح ...

أنهم ليسوا سوى حمقى ! ... »

وبوب أدرك خطر النقد السخيف حتى إذا كان موجهاً ضد مقال سخيف :

« قد يخطيء عشرة نقاد في تقديم لشخص مخطيء ! ..

وبعد أن كان أمامنا سخيف واحد ،

نجد عشرة آخرين الى جانبه !! ... »

ولكن ، ما هي رسالة الناقد الخطيرة التي تتطلب هذه الامكانيات كلها ؟ . ليست مهمة الناقد تحطيم الادباء كما يعتقد بعض النقاد وإنما يجب أن يكون الناقد :

« المروحة الكريمة التي ،

تزيد نار الشاعر اضطراباً ...

وتزيح عن جمراته الحمر ،

رماد التعمّر وغباره ...

وهو الذي يُعلّم الناس

أن يدعوا إعجابهم بالعقل والمنطق ! .. »

هذه هي صفات الناقد الذي نستطيع أن نلقي بانتاج الأدباء بين يديه ، بكل اطمئنان ولكن .. لمن تقدم مثل هذا الناقد المثالي ؟ لأي نوع من الأدباء ؟ .. أين هو الأديب الذي يستحق مثل هذا الناقد ؟ ...

أنا لا أقصد هنا التعرض لسلوكية الأدباء الذين يصرون على أن شخصيتهم أمر منفصل تمام الانفصال عن أدبهم ... أنا لا أقصد أي شيء من وراء تساؤلي ...

ولكن يدي تأييان إلا الاستمرار في تقليب صفحات الكتاب الاصفر ، وعيني

قد استقرتا بإصرار على اسم « راسكين » ، وعلى بحثه الشيق حول « العلاقة بين الفنان والأخلاق » بينما يدور تساؤل في خاطري بإلحاح متعب : « من هو الأديب الذي يستحق مثل هذا الناقد المثالي ؟ » ... ومن هو الفنان الإنسان ، الفنان الحقيقي ؟ — ان كان هنالك ضرورة لشيء كهذا !! ... — .

إن لدى راسكين جواباً مثيراً .. إنه يرى أن أي صانع يدوي عادي ، يحتاج إلى مقدرة عقلية معينة ، كي يتحكم في عضلاته بدقة ومهارة أثناء العمل ... فأية مقدرة عقلية وخلقية يجب أن تتوافر في صانع يدع فناً يخلد على مر الأجيال ؟ ...

إن إبداع أي أثر فني يحتاج إلى توازن وانسجام بين جميع قوى المبدع الحيوية .. وقدرة مذهشة على التحكم في مرونة تفكيره ، إلى جانب صلابة عزمه ... فضلاً عن نشوة البذل المظهرية التي ترافق كل عملية خلق ، والتي تشبه النشوة التي يتحسبها النسر حين يحرك جناحه القوي خفقة إثر خفقة ... نشوة تغسل أدران النفس ، وتجعل الفنان في حالة عجيبة من السمو الخلقي والروحي ... — على حد تعبير راسكين الذي يتابع : —

بعد هذا كله ، هل يعقل أن يكون مثل هذا الرجل الذي خاض تجربة كهذه ، رجلاً (سيئاً) أو أن يحمل قلبه الكبير حسداً نهائياً ، أو نقمة سوداء الحسرة ، أو حقداً وضيعاً ؟ ...

وهكذا يرى راسكين أن طبيعة العمل الفني الرفيع ، تتطلب من منتجه الاعتياد على مرونة ذهنية معينة ، وتحكماً أخلاقياً في الخواص والإرادة ... مما يؤدي به دوناً بمجهود إلى كمال (أخلاقي) نبيل ...

وأول ما يخطر بالبال بعد قراءة هذا الرأي هو مبالغته ! . وأكثر الذين ابدعوا ، أمثال بايرو وغان كوخ وادجار آلن بو واوسكار وايلد لم يكونوا أخلاقين بالمعنى التقليدي العام للكلمة ولكنهم بلا ريب فنانون عظماء ... ولم تفت هذه الناحية راسكين ولكنه وجد لها تعليلاً ، وظل مصرّاً على رأيه ، فذهب إلى أن عيوب شخصية الفنان لا بد وأن تظهر واضحة في آثاره مهما جل قدرها .. وان أولئك لو كانوا (أخلاقين) لأبدعوا بشكل أفضل (ينجلي إلي ان ذلك ليس صحيحاً بالضرورة وان العكس يمكن أن يكون صحيحاً ولكن ليس بالضرورة أيضاً) .

لا أدري لماذا جرني التحدث عن شخصية الناقد المثالي ، الى بحث راسكين حول السلوكية الخلقية المعينة ، التي يفرضها مجرد كون الإنسان فناناً مبدعاً ... إنها مجرد صدقة لا أكثر ولا أقل ! ... وبعد ... أعرف انني بما ذكرت لم أكسب ودَّ ناقد . ولا أديب ... ولكنها صيحة راسكين ، ومن حقه أن يقول رأيه وان أقلل صيحته (وما أكثر المتاعب التي تجلبها صيحات الحق !) ...

أرجو أن تحضر الأشباح في الأسبوع المقبل وترينيني من « صيحات الحق » ومتاعبها .

شاعر يزور مع الليل (٥)
« جوته » : الخطيئة هي الرفض المطلق

ألا فلتنمجر وحشتي حجب الضباب ، ولتمزق وحلتي ستائر الأبدية ، ولتندفق
الأرواح في غرفتي الكثيرة ...

هكذا كنت أتمم ... وتفوص همساتي في السجادة الملونة ، وتمتدح بحنينها إلى قدمي
نسبح ينزلان فوقها برفقٍ وجيلٍ .

رأيت فجأة أمامي ... خبيرة دافئة تلهث في حنايا وجهه المرتعدة ... جليل المنظر ،
عميق النظرات ... ازدادت عيناه ظلمة لما سألته : من أنت أيها الضائع ؟

— ما أنا بضائع ! أنا فاوست ... أنا حكيم فيمار ... أنا جوته ...

— أنت ذلك الرجل المثقل بالابداع والحب ... والأحزان ؟

— لقد فاز كتابي « آلام فرتر » بالشهرة والخلود . وكان له أبلغ الأثر في نفوس
شبيهة ذلك العصر ، حتى أن نسبة الانتحار ارتفعت فعلاً لديهم بعد قراءته !! ...
أكرمني « دوق ويمر » وظللت أعمل معه في منصب محترم بقية حياتي « الارضية » ...
ولقبت بحكيم ويمر ...

— متى توفيت ؟

— تقصدين متى ستمتكم ورحلت ؟ كان ذلك عام ١٨٣٢ في حسابكم الأرضي .

— قلت لي انك فاوست . هل تعني بذلك الرجل الذي باع نفسه للشيطان بموجب
صك وقعه لا بليس بدمه ؟ . تلك الحكاية التي أبدعت في كتابتها ؟ ...

• الشاعر جوهان جوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) Johann Goethe .

— أجل ! ... فاوست أسطوره ألمانية ، استوحى منها أكثر من « زميل » تمثيلات وقصصاً خلدت بعده ... لقد كتب عن فاوست الشاعر مارلو ... ولكنه جعله يفقد نفسه نهائياً ، ويفشل في الحصول على الغفران ، أما أنا فقد جعلت فاوست يجد نفسه من خلال خطيئته ، ويهتدي إلى طريقه بعد أن طال تحبسه في الدروب الوعرة ...

— وما هي القصة ، قصة فاوست ؟ ...

— عالم مثالي مؤمن بالله وضيع في جميع الفنون والمعارف ... يراهن الشيطان مع الرب على أن باستطاعته أن ينتزع هذه الروح الطيبة منه ... ويرضى الرب بالرهان ويعطي مستوفليس « ابليس » الإذن باغرائه .

ويتسرب الشيطان إلى أعماق فاوست المنيرة خلال نقطة ضعفه ... إلا وهي ولعه المجنون بالمعرفة الكاملة والقوة ... ويقع فاوست في الشرك ، — كما وقع بروميثيوس من قبله — ، ويوقع صكاً مع الشيطان مهوراً بدمه يقتضي بأن يخدم الشيطان فاوست طوال حياته على الأرض ، شريطة أن تصبح روحه ملكاً له بعد مماته ... ويهوى فاوست ، الذي بلغ العقد الخامس من عمره فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ... فيأخذ الشيطان إلى كهف الساحرة ، حيث يعيد إليه شبابه .. « شبابه الجسدي » فقط ، لكنه يظل في « كهولته » العقلية المعذبة بنزوات جسد قتي ... ويمهد الشيطان السبيل لفاوست كي يلتقي بمرغريت التي تحمل منه . ويظل نضج فاوست يعذب ، وضميره المومج يرهقه ... ويتخلى فاوست عنها بعد أن يقتل أخاها ، ويتسبب في موت أمها ...

ويحاول إبليس تسليته فيركب « مكينة » الساحرات ، ويعطي فاوست عترة : تطيران بهما إلى قمة جبال المارتز لحضور ليلة السحرة الرائعة ... ويراقص فاوست ساحرة فائقة الجمال ويكاد ينسى حزنه الداخلي ... وفجأة تقفز من فم الساحرة فأرة هي رمز لخبيثة فاوست الذي يفشل في النسيان ... ويكره الشيطان وقوته ، ويكره كل شيء حتى نفسه ، ويعود لإنقاذ مرغريت (البراءة) بعد فوات الاوان ... يجدها سجيناً ومجنونة بعد أن قتلت ابنها للتخلص من عارها ... ترفض الهرب معه ... ويخلفها تنتحب في عتمة السجن ويخرج هارباً ... وينتهي هنا الجزء الأول من فاوست ، وفي الجزء الثاني منه نجد أن عجز السلام بعد خطيئته ، وذلك بتسخير معرفته في خدمة الناس ، وفي محاولاته التي لم تتوقف لحظة واحدة من أجل انقاذ نفسه .

— ما وجه الشبه بينك وبين فاوست ؟

— كلانا وجد نفسه ساعة أحسن أنه فقدها . وكلانا رفض النظم الاجتماعية رفضاً مطلقاً ثم قاده الرفض إلى (الرضى) الحزين ، بعد تجربة مريرة .

أنا هو فاوست بنهمي المجنون للمعرفة ، وجوعي للحقيقة الخالدة والليقين ...
الجوع الذي ما روته علوم الأرض وكنوزها ، وشفاه النساء ، وأسرار النجوم ، وخفايا الغيب ... كنت أبحث عما وراء هذا كله ... عن نفسي ...

— وماذا وجدت ؟

— وجدت ان من حق الإنسان أن يخطيء بينما هو يكافح باحثاً عن الحقيقة . ليست الفضيلة في تجنب الرذيلة بدافع الخوف ... الفضيلة ليست موقفاً سلبياً جامداً . متحجراً من النزوات ، وإنما هي القدرة على الانحياز الايجابي نحو (الفضيلة) بعد تجربة تقود إلى القناعة والرضى ... وجدت أن الإنسان لا يضيع ما دام يكافح ... هنالك أمل في أن يهتدي ما دام يبحث .

— ولكنك كنت ملحداً ... لقد هاجمت المعابد وهجوتها .

— ما هذا بالحداد ، إلا إذا كان الإيمان في الانقياد الأعمى ... هذا جزء من ثورتي على المؤسسات الاجتماعية الفاسدة .

— لم تكن تؤمن بالتعاليم المسيحية عن الثالوث المقدس .

— لقد اعترفت بفكرة الله وبوجوده ، ولكنني اعترضت على أن نضمن الله — الذي هو فكرة — في كلمة ... ونردد الكلمة ببلاهة وننسى مضمونها . ألا تذكرين فاوست حين قال لمرغريت :

« من يجرؤ على تحديد اسم الله ؟ ... »

ومن يجرؤ مع ذلك على إنكار وجوده ؟ ... »

ألم يرفع قباب السماء فوقنا ؟ ... »

ألم يرم بالأرض الصلبة تحت أقدامنا ؟ ... »

ألم يبعث في النجوم الخالدة ... »

إشعاعات أضواء رقيقة ؟

ألا ينظر كل منا في عيني صاحبه بسلام ؟
سمّيه ما شئت ، فهو موجود ...
سمّيه الغبطة ... القلب ... الحب ... الله ...
أنا لا أملك اسماً له ...
إنه إحساس ... إنه بكامله مجرد إحساس ...
وما اسمه إلا الصوت والدخان ...
الذي يكفّر ضياء سمائه ! ...
— لقد أقنعتني ... ولكن . كيف تدعي الرضى بقوانين المجتمع ، مع انك عشت
زمناً طويلاً مع عشيقتك ؟
— هل نسيت أنني تزوجت منها بعد « عشرة » طويلة ؟ ...
لقد علمتني تجاربي ، أن النظم الاجتماعية ضرورية ، على الرغم من فسادها ،
وأن الحل يكمن في إصلاحها ، لا في إلغائها نهائياً ...
— ما رأيك بالحياة ؟
— جميلة بوداعتها العنيفة وبساطتها المرهقة ... لقد امتنع فاوست عن الانتحار
عندما سمع ضحكات الناس المحتفلين بقدوم الربيع !
« همهمة الألحان ...
بطنينها ...
تبعد كأس السم عن شفتي ... » ...
— هل كنت تؤمن بالسحر ؟ إن فاوست يتضمن جميع معتقدات العصور الوسطى
عن السحر والسحرة ...
— لم أثر السحر في صفحات كتابي إيماناً مني به ، ولكنني سخرت منه كما تلحظين
في تصويري لكهف الساحرة وتصرفاتها .
— وماذا عن ليلة السحرة في قمة الجبل ؟

- يا لعصرك المادي ... قيمة الشيء عندكم مرهونة بمدى امكان وقوعه ...
 ألا ترين مبلغ الجمال الذي تتضوع به أوهامي ؟ ... أتعرضين على ليلة السحرة ؟ أما
 أحسست بنشوة المجهول تغمرك . وأنت تبصرين فاوست جالساً فوق عذرتة الغريبة ،
 وهي تطير به فوق القسم : بينما هو يتحاشى أن يصطدم رأسه بالنجوم ، ونظراته
 تهم في الأودية الملتوية : والأنهار المتشعبة التي تغسلها غلازل قمر مسحور عجيب ...
 أوهام كتابي : هي من خمرة معتقدات وطني الشعبية ... إنها خمرة الأيام المعتقد
 المسحورة ... تسكر بلا كأس ...

- انك مصيب فيما ذكرت ... الاسطورة بنظري ليست سوى ينباع الحقيقة
 بعد أن يجرتها حرارة العتق ودفع الحنين الى الماضي ... الأساطير الشعبية معين ابداع لا
 ينضب ... ولكن ... لدي سؤال أخير أطرحه . هل في حديثك عن مرغريت مدلول
 واقعي ؟ أعني ، هل تمثل مرغريت فضيحة في حياتك لم تمتد إليها يد النقاد والناس
 ولكنها مع ذلك ظلت تأكل من سكينه أعماقك حتى نفست عنها في كتابك فاوست ؟
 - هذا سؤال صحفي أرفض الاجابة عنه ... أيتها المتعبة ... لا تكشفني عن الماضي
 أكفانه ... دعيه يرقد بسلام ...

وأردت أن أستزيد من خبرته المعتقد ، ولكنني رأيت الشهاب يهوي في الظلمة
 باستسلام يائس ، ولمحت جوته يلنوب مع رماده وتأوهاتة ... وعدت وحيدة ... وقد
 أطبقت حجب الغيب أبوابها من دوني ... آه لو ألقاه ثانية حقاً ، ولو لثانية !

دمشق ١٩٦١/٢/٥

شاعر يزور مع الليل (٦) « ويطمان » : أسطورة الموت كاذبة

تقدمي أيتها الروح الضالة في أوقيانوسات السماء ... اقتربي يا متعبة ، فابتهاالات
اللهب الأحمر تناديك ... وضياح النور بين أكداس الكتب يناديك ... تقدمي أيتها
الروح ... فشحوب وحدتي يناديك ... اقتربي أيتها الروح ... اقتربي .

وانسلت الروح هادئة وادعة ، وابتسامة رائعة ترقص في كل ثنية من ثنايا سحب
وجبهها ...

— من أنت أيتها الروح الآمنة المطمئنة ؟

— أنا (والـ ويطمان) ... الشاعر الأميركي الأول الذي سكب في الشعر الأميركي
خصائصه المميزة ، التي ميزته نهائياً عن الشعر الانجليزي ...

— ما بالك سعيداً كأنك لم تمت ؟

— « من قال انني انتهيت ؟ من قال ان هنالك فناء ؟ ...

لا ريب في أنني توفيت ...

عشرة آلاف مرة من قبل ...

أسمعك تهمسين بذلك أيتها السماء ...

أيتها النجوم ... ويا حشائش القبور ...

بغموض لا يفهم ...

• الشاعر والـ ويطمان (١٨١٩ — ١٨٩٢) Walt Whitman .

فكيف أثبت أنا هذه الحقيقة بوضوح ؟ » ...

— هل أفهم من ذلك أنك تؤمن بتناسخ الأرواح ؟

« ماذا تظنين أنه قد حدث للذين مضوا :

الشبان منهم والكهول ؟ ...

وماذا تظنين أنه قد حدث للواتي مضين ...

النساء منهن والصغيرات ؟ ...

إنهم أحياء في مكان ما ... كل ذرة في الوجود تصرخ :

ذلك الذي ندعوه بالموت ،

باطل ، وغير موجود ...

وإذا ما وجد ،

فإنه يقود الى حياة جديدة ... »

— ولماذا تدعو نفسك بالشاعر الأميركي الأول ؟

— لأنني جسدت في شعري الروح الأميركية للمرة الاولى ... تحدثت عن المساواة ...

الديمقراطية ... الحرية ... وحطمت (تابو) الشعر الانجليزي ، ألا وهو موضوع
الجنس الذي لم يجرؤ شاعر على أن يطرقه من قبل ، لأنه يتعارض مع (عمود الشعر
الانجليزي التقليدي) ...

— الروح الامريكية تعني ... « المساواة ... الديمقراطية ... الحرية » ؟ هذه نظرية

شعرية ... وأنا أريد أدلة ... سئمت فخركم وتبجحكم أيها الادباء ...

— الروح لا تبجح حتى ولو كانت روح أديب ...

الروح تقرر الحقيقة فقط ... ومع ذلك اسمعي هذا المقطع من قصيدتي الشهيرة

(وريقات العشب) ...

« تسعة وعشرون رجلاً استحموا عند الشاطئ ...

تسعة وعشرون عاماً من عمر امرأة كانت ترقبهم ...

تسعة وعشرون عاماً كلها وحدة ووحشة ...
إنها تملك البيت الجميل أمام الشاطئ ...
ركض التسعة والعشرون رجلاً
ضاحكين راقصين على الشاطئ
وعروق الماء تنسل فوق أجسادهم ...
وكانت هنالك يد خفية ...
تحتس أجسادهم بحرقه
وتبسط مرتعشة حول خصورهم وسيقاتهم ...
ويعوم الرجال على ظهورهم .
فتلتصق صدورهم في أشعة الشمس ...
ولكنهم لا يشعرون بالتي
تلتصق بهم بشدة ...
ولا يدرون شيئاً عن نوحها ... وتنهلاتها ... »
— هذا لا يثبت كلامك عن أميركا ، لكنه يثبت كلامك عن شعرك (الجنسي !) ..
— أبداً ... إنه ناتج عن اعتقادي بأن الجسد ورغباته ، والتعبير عن هذه الرغبات
أمر لا يقل قدسية عن الروح وحاجاتها والتعبير عن هذه الحاجات ...
« صافية وعذبة هي روحي ...
وصاف وعذب هو كل ما تبقى مني ..
وكل ما ليس بروحي ... » ...
— وما الذي جعل منك الشاعر الأميركي الأول أيضاً ؟
— لم يقتصر تمردي على أفكار الشعراء الانجليز ، وإنما تجاوزها الى وسيلة التعبير
ذاتها ... لا أعتقد أن الوزن الذي طالما التزمه ضروري ... لقد نظمت أشعاري على
طريقة (الشعر الحر) ...

— وماذا يميزك أيضاً ، عن الشعراء الانجليز ، الذين كتبتم بلغتهم ، وتمردت على
أساليبهم ومعتقداتهم ؟

— لقد عبرت عن التجارب الصوفية الروحية عن طريق طريق الاصطلاحات المادية
الجلسدية ... اسمعي !

«أتذكرين كيف ارتعينا نغماً على الأعشاب ...

صبيحة يوم صيفي شفاف ؟

وكيف سكن رأسك قرب رأسي ...

واستندرت نحوي ...

وكيف أزعجت قميصي عن صدري ...

وغرست لسانك حتى قلبي العاري ...

وظللت تبحثين حتى بلغت لحيتي ...

وحتى بلغت قلبي ... أتذكرين ؟ ...

— آسفة ... ولكنني لا أرى صوفية هنا ولا أشمها ...

أرى شاعراً (نمروداً) يدعي الصوفية .

— حكمتك مطعون به لأنك لم تقرأي ما قبل وما بعد هذا المقطع ... لقد سمعت

(لا تقربوا الصلاة) وضيق الوقت بمنعني من أن أقول (وأنتم سكارى) ...

— لن أصدقك إلا اذا قرأت القصيدة بكاملها ...

لم يثر التحدي ملاحظه المحبة ... ابتسامته بدأت تلوي ساعه اخترقت أنظاره
النافذة ... وضاعت في فضاء الليل ... حيث كان شهاب يهوي ... يحترق بصمت
مفجع كخية عمري ... فتبتلع الظلمة رماده وتأوهات ...

وضاع شاعري من جديد في أوقيانوسات السماء ... وظل صوته الأخير يلوي :
عودي الى أعمالتي الكاملة واقرئها ... أنتم العرب تطلقون الأحكام السلفية ولا تبدلون
جهداً للمعرفة الكلية ! ...

إقرار

محتويات هذا الكتاب نشرت في المجلات والصحف التالية وفقاً للترتيب الأيحيدي :

الأسبوع العربي اللبنانية

الحوادث اللبنانية

جريدة الرأي العام الكويتية

جريدة الكفاح اللبنانية

المعرفة السورية

جريدة الوحدة السورية

الفهرس

٥	مصارحة
٧	الامداء
٩	عن مدينتي الأم
١٠	هوامش على فانورة دمشقية
١٥	الرصاصه لك ، والجرح لي !
١٩	لك جبي ولي ذاكرني
٢٠	وكن موقي الاخير
٢٣	وصل الحب ، رحل الحب
٢٧	ثلج النسيان الاسود
٣٢	ساحبك . . ريثما تطلق الحياة سراجي
٣٦	كنا اثنين : اننا وحزني
٤١	للقلب ، صرخة بالانجليزية وللذاكرة ، شمع أحمر
٤٢	كتابات على دمعة
٤٥	الغابات تموت منتحرة
٤٧	تأملات أدبية في اختراع علمي
٥٢	عالم بلا قلب
٥٩	موت رقم ١

- ٦١ تأملات شبه نرجسية حول كتي
٦٢ « حب » .. الكلمة الملعونة !
٦٧ قصة القصة التي احاول كتابتها
٧١ بجزن غابة تحترق ، أقول ..
٧٥ وحياتي ملحمة تبدأ من عنقي فما فوق
٨٢ وهذا ايضاً نقد أدبي
٨٣ قلبي بلاط الغربية

- ٨٥ لحظات حارة
٨٦ لمسة حنان ... قبل السفر !
٨٩ حكمة من كربلاء
٩١ قصة حب

- ٩٥ مائوا
٩٦ فلنعترف
٩٨ اسطورة البسود
١٠٣ موت القمر
١٠٥ لن نصدق انك لن تعود
١٠٩ احتجاج على الموت

- ١١٣ نموت احدى ميتاتنا
١١٤ بعد ان احترق حقل الزيتون !
١١٧ في الزحام .. لا أحد
١٢٠ ماذا اكتب !

- ١٢٥ كتابات طفولية في زمن ذاكرة الياسمين بدمشق ...
١٢٦ ستنشئ المدينة من اجلي !
١٢٨ انا دمية الساحرة الشريرة
١٣١ لا شيء سوى فسيفساء !

- ١٣٤ توهمت انني طفلة
١٣٧ الحقيقة رائحة . . مهما تكن ممزقة ودامية
١٤٠ صديقي الذي كان يغني لي . . طوال الليل
١٤٣ السفر . . أهو نزوة همجية في مطاردة ما أجهله ؟
١٤٦ المأساة الحقيقة ان تستحيل الاشياء الى ملل
١٤٩ ثار عندما اكتشف اسمه !
١٥٢ العبد والطائر الأخضر
١٥٤ يا رأسها الأشقر . . أترجم الحضارة السوداء بالحجارة ؟
١٥٧ ما رأي طيور الغابة بهيئتنا الجرادية
- ١٦١ احتجاج تلميذة على اساليب التعليم المضجرة
- ١٦٢ (شاعر يزور مع الليل / « تشوسر » وأنا
١٦٦ (شاعر يزور مع الليل / « بايرون » يفاجئني
١٧١ (شاعر يزور مع الليل / « دون » دونما امرأة واحدة وفيه
١٧٦ (شاعر يزور مع الليل / « بوب » بين اللاأخلاقية . . والاخلاقية
١٨٢ (شاعر يزور مع الليل / « جوته » : الخطيئة هي الرفض المطلق
١٧٧ (شاعر يزور مع الليل / « ويتمان » : اسطورة الموت كاذبة
- ١٩١ اقرا

مؤلفات غادة السمان

الاعمال غير الكاملة

صدر منها :

- | | |
|--------------------|----------------------------------|
| (الطبعة الخامسة) | ١ - زمن الحب الآخر |
| (الطبعة الثالثة) | ٢ - الجسد حقيبة سفر |
| (الطبعة الرابعة) | ٣ - السباحة في بحيرة الشيطان |
| (الطبعة الرابعة) | ٤ - ختم الذاكرة بالشمع الأحمر |
| (الطبعة الرابعة) | ٥ - اعتقال لحظة هاربة |
| (الطبعة الثالثة) | ٦ - مواطنة متلبسة بالقراءة |
| (الطبعة الثالثة) | ٧ - الرغيف ينبض كالقلب |
| (الطبعة الثالثة) | ٨ - ع غ تتفرس |
| (الطبعة الثانية) | ٩ - صفارة انذار داخل رأسي |
| (الطبعة الثانية) | ١٠ - كتابات غير ملتزمة |
| (الطبعة الثالثة) | ١١ - الحب ، من الوريد الى الوريد |
| (الطبعة الاولى) | ١٢ - القبيلة تستجوب القتيلة |
| (الطبعة الاولى) | ١٣ - البحر يحاكم سمكة |
| (الطبعة الاولى) | ١٤ - تسكع داخل جرح |

منشورات غادة السمان

بيروت - لبنان ص.ب. : ١١٨٣٣١

تلفون : ٣١٤٦٥٩ / ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان

(قصص)	(الطبعة الثامنة)	عينك قدري
(قصص)	(الطبعة الثامنة)	لا بحر في بيروت
(قصص)	(الطبعة السابعة)	ليل الغرباء
(قصص)	(الطبعة السادسة)	رحيل المرافيء القديمة
	(الطبعة الثامنة)	حب
(رواية)	(الطبعة الخامسة)	بيروت ٧٥
	(الطبعة الثامنة)	اعلنت عليك الحب
(رواية)	(الطبعة السادسة)	كوابيس بيروت
	(الطبعة الاولى)	غربة تحت الصفر
	(الطبعة الاولى)	الاعماق المحتلة
	(الطبعة الاولى)	ليلة المليار
(رواية)	(الطبعة الاولى)	اشهد عكس الريح

منشورات غادة السمان

بيروت - لبنان ص. ب. : ١١٨٣٣١

تلفون : ٣٠٩٤٧٠ / ٣١٤٦٥٩



هنا الكتاب هو الكتاب الرابع في سلسلة الأعمال غير
الكاملة، له غادة السمان، وتضم السلسلة كتابات لم يسبق نشرها
في كتبها.

وهتم الذاكرة بالشمع الأحمر، كتاب، شامي، المذاق.
أكثر ما يحويه كتب في «الشام»، أوها، أو عنها، أو انطلاقاً من
منهجها النفسي، أو تحت جاذبية كوكبها.

ويضم الكتاب المواضيع التالية: لك حي، ولي ذاكرتي -
للقلب صرخة بالأملية، وللذاكرة شمع أحمر - تأملات شبه
نوجسية حول كتي - لحظات حارة - مسالوا - نموت إحدى
ميتاتنا - كتابات طفولية في زمن ذاكرة الياسمين بدمشق - شاعر
يزود مع الليل.

الناشرة

منشورات غادة السمان

